# غزوة بدر

## سيد قطب

لا إله إلا الله محمد رسول الله

أحمد عبد العزيز

## الغزوات في ظلال القرآن

إعداد جمال ماضي

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع

# الغزوات
## في ظلال القرآن

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

---

دار الدعوة - للطبع والنشر والتوزيع

١ ش منشا - محرم بك - اسكندرية ت : ٢١٧٨٨

الغزوات
في ظلال القرآن

سيد قطب

# غزوة بدر

إعداد
جمال ماضي

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع
١ شارع ملشا - محرم بك الإسكندرية


بسم الله الرحمن الرحيم

# الإهداء

إلى الشهداء

* الذين اشتاقوا إلى الجنة فسلكوا طريقها .
* الذين أسرعوا حين الجهاد فشهدوا المعارك والغزوات .
* الذين واجهوا الجبابرة والطغاة وقالوا كلمة حق عند سلطان جائر .
* الذين هم رائدهم القرآن وحياتهم فى ظلاله .
* إلى الشهداء عامة وشهيد القرآن خاصة .

الفقير إلى ربه

جمال ماضى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن والاه

تمهيـــد :

* إن السر العجيب ليس فى بريق الكلمات وموسيقى العبارات ، إنما هو كامن فى قوة الايمان ! ، إنه فى ذلك التصميم الحاسم على تحويل الكلمة المكتوبة إلى حركة حية والمعنى المفهوم إلى واقع ملموس .

* إن أفكارنا وكلماتنا تظل جثثا هامدة حتى إذا متنا فى سبيلها أو غذيناها بالدماء انتفضت حية وعاشت بين الأحياء .

* فإلى الذين يجلسون إلى مكاتبهم يكبدون قرائحهم لينتقوا اللفظ الأنيق ، وينسقوا العبارة الرنانة ويلفقوا الأخيلة البراقة ، إلى هؤلاء أتوجه بالنصيحة :

* «وفروا عليكم هذا العناء فإن ومضة الروح وإشراق القلب بالنار المقدسة ... نار الايمان بالفكرة (هو وحده سبب الحياة) حياة الكلمات ... وحياة العبارات ...»

تلك كلمات لشهيد القرآن ... سيد قطب ، وهى أصدق

وأنبل ...وأدق وأوفى كلمات كتبها واستشهد فى سبيلها لتعيش ورواها بدمه لتحيا ...» (١) .

ونسوق من المعالم ما كتبه الشهيد عن نفسه قائلا :

«إن الذى يكتب هذا الكلام إنسان عاش يقرأ أربعين سنة كاملة كان عمله الأول فيها هو القراءة والاطلاع فى معظم حقول المعرفة الإنسانية ، ما هو من تخصصه وما هو من هواياته ، ثم عاد إلى مصادر عقيدته وتصوره فإذا هو يجد كل ما قرأه ضئيلا إلى جانب ذلك الرصيد الضخم — وما كان يمكن أن يكون إلا كذلك — وما هو بنادم على ما قضى فيه أربعين سنة من عمره . فإنما عرف الجاهلية على حقيقتها ، وعلى انحرافها ، وعلى ضآلتها ، وعلى قزامتها ، وعلى جعجعتها وانتفاشها ، وعلى غرورها وادعائها كذلك !!! وعلم علم اليقين أنه لا يمكن أن يجمع المسلم بين هذين المصدرين فى التلقى ... ومع ذلك فليس الذى سبق فى هذه الفقرة رأيا لى أبديه إن الأمر أكبر من أن يفتى فيه بالرأى ... إنه أثقل فى

---

(١) زين الدين الركابى مقدمة : معركتنا مع اليهود ط دار الايمان بيروت سنة ١٩٧٠ م .

ميزان الله من أن يعتمد المسلم فيه على رأيه ، إنما هو قول الله سبحانه وتعالى ، وقول نبيه — صلى الله عليه وسلم — نحكمه فى هذا الشأن ، ونرجع فيه إلى الله والرسول ، كما يرجع الذين آمنوا إلى الله والرسول فيما يختلفون فيه) .

## ١ — حياته وعصره

استقبله الوجود طفلا فى قرية موشا من محافظة أسيوط فى مصر سنة ١٩٠٦ م ، سليل أسرة كريمة ، وما إن أتم العاشرة من عمره إلا وقد أكمل حفظ القرآن الكريم ... وتدرج فى مراحل التعليم حتى تخرج من دار العلوم ... دار الحكمة والأدب .

وإن أهم ما فى حياة سيد قطب تطوره مع الفكرة إلى أن أصبح يصوغ للحركة فقه سيرها ومعالم طريقها وأنه دفع حياته فى سبيلها فعاش الفقه وبقيت المعالم ، ونقسم ذلك إلى أربعة مراحل:

**المرحلة الأولى :**

تلميذ العقاد ونبوءة الامام الشهيد :

تحت عنوان : «بصيرة نافذة ورأى ملهم : حول سيد قطب» كتب الاستاذ محمود عبد الحليم : (١)

---

(١) الاخوان المسلمون : أحداث صنعت التاريخ جـ ١ ص ١٩٠ ، ١٩١ .

«وكان من تلامذة العقاد فى ذلك الوقت شاب أديب درعمى اسمه «سيد قطب» ولم يكن سيد قطب مجرد تلميذ للعقاد بل كان أقرب تلاميذه إليه وألصقهم به وأشدهم تشيعا لأدبه وفكره واتجاهاته حتى إن مجلة الرسالة بعد أن لقى الرافعى ربه ظلت فاتحة صفحاتها للكتابة عن الرافعى ردحا من الزمن فكان أشد الكتاب تهجما على الرافعى وإشادة بالعقاد هو سيد قطب» .

ومازال متأثرا بالبدعة الغربية حتى ظهر ذلك فى مقال :

«وقد قرأت فى ذلك الوقت فى جريدة الأهرام . مقالا لسيد قطب يدعو فيه دعوة صريحة إلى العرى التام وأن يعيش الناس عرايا كما ولدتهم أمهاتهم — وكانت هذه البدعة قد انتشرت فى بعض بلاد أوروبا» .

قدأثار المقال الأستاذمحمودعبدالحليم فأعد رداً وعرضه على الامام الشهيد حسن البناالذى أثناه عن نشره حتى لا يلفت الأنظار للمقال ولا يجعل كاتبه يتعصب لرأيه وقال عن سيد قطب :

«هذا الكاتب شاب وترك الفرصة أمامه للرجوع إلى الحق خير من احراجه ... وما يدريك لعل هذا الشاب يفيق من غفلته...ويفىء إلى الصواب . ويكون ممن تنتفع الدعوة بجهوده فى يوم من الأيام؟»

فكان أحد العمرين ، وتحققت هذه النبوءة وإن لم تكن فى حياة الامام الشهيد ، وكان حقا «بصيرة نافذة ورأى ملهم» ليست لما كان من شأن سيد قطب فى الدعوة . ، بل لخصائص قد توفرت فيه منذ اقباله على البحث فى دار العلوم . يقول استاذه محمد مهدى علام استاذ التربية بدار العلوم سنة ١٩٣٢ م :

«إن فى دار العلوم اليوم نهضة علمية أدبية يحمل لواءها نفر من أبنائها ... أعد سيد قطب فى طليعتهم»

ويقول أيضاً :

«يعجبنى جرأته الحازمة التى لم تسفه لتصبح تهورا ولم تذل فتغدو جبنا ، وإن هذه الجرأة الرشيدة التى دعته إلى الاستقلال لهى التى تجعله أحب إلى قلوبنا . وقصارى القراء أن أقول لهم :

«اننى أعد سيد قطب مفخرة من مفاخر دار العلوم» (١)

**المرحلة الثانية :**

سيد قطب صديق الحركة الاسلامية

ويذهب سيد قطب فى بعثة إلى أمريكا لنيل درجة الماجستير

---

(١) محمد مهدى علام — ٢٨ فبراير سنة ١٩٣٢ م — مهمة الشاعر فى الحياة .

فيجد هناك احتفالا مهيبا وعندما يسأل عن سر هذه الفرحة الغامرة يقال له : مات حسن البنا ... وهنالك تنكشف الحقائق أمام ناظريه فيرى حقيقة الزيف الغربي وخصومته الحاقدة للاسلام وحركات الجهاد الصحيح . فعاد من هناك وقد رسم لنفسه طريقها وصمم على نهج سرعان ما ظهرت بوادره فى كتابه أمريكا التى رأيت (١) .

ومن ثم يعمق دراساته ومطالعاته الاسلامية ، فنى هذه المرحلة جرد قلمه مهاجماً تصرفات الملك السابق فاروق وأصدر العدالة الاجتماعية فى غير ما خوف ولا تردد.وفى أول يناير سنة ١٩٥٢ كتب تحت عنوان «رأى الاخوان ورأى الاسلام» فى جريدة المصرى مطالبا بالموقف الصريح الواضح للاخوان على لسان المرشد العام لتقطع ألسنة الحاقدين والأعداء ، فكتب من باب العاطفة والصداقة قائلا :

«ولكن هناك كلمة صريحة يجب أن تقال للاخوان المسلمين وأحسبنى أقدر الناس على أن أقولها لهم بحكم ما بينى وبينهم من صداقة وثقة وتعاون» (٢) .

---

(١) شعراء الدعوة الاسلامية - الجزء الرابع ص ٢٧

(٢) الاخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ — ج ٢ ص ٤٨٦ ط دار الدعوة اسكندرية .

وبالفعل يرى الاستاذ المرشد حسن الهضيبي أن يقول الكلمة الفاصلة فى مقال نشر بالمصرى تحت عنوان :

**(الاخوان ... الاخوان)** (١)

**المرحلة الثالثة** : من الصداقة إلى التصديق :

ثم يخلص قلمه لدعوة الحق ... وتتحول صداقته للحركة الاسلامية إلى تصديق ... ويتولى رئاسة قسم نشر الدعوة ... ولما صدرت مجلة «الاخوان المسلمون» فى أوائل الخمسينات كان رئيسا لتحريرها فحارب فى كل جبهات الظلم فى عزم وحزم وإقدام .

وكمصير كل الدعاة يواجه سيد قطب الطغاة ... لمؤلفاته التى لاقت إقبال الجماهير عليها وخاصة التحية المثقفة ... فقد كان شهما كريما جريئا فى الحق ومن أجل الحق ... عرض عليه منصب كبير فى العراق بعد أن أفرج عنه سنة ١٩٦٤ ، ولكنه رفضه كما رفض من قبل ترشيحه فى وزارة محمد نجيب (٢) ... رفض أن يترك الميدان نجاة بنفسه بل ظل يدافع عن دينه ويشد الناس إليه حتى

---

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ٤٨٧ .

(٢) كيف يفكر الاخوان المسلمون — أحمد محمد شاموق — دار الجيل — بيروت ط سنة ١٩٨١ م .

اعتقلوه سنة ١٩٦٥ م ، وكانت المهزلة التى نصب لها الدجوى ... وكان حكم الاعدام (١) .

وفى هذه المرحلة رسم الشهيد للدعوة الاسلامية منهاجها ومعالم سيرها التى تتلخص فى رأيه (كما أوضحه الامام أبو الحسن الندوى) بقوله (٢) :

«وتحدث الاستاذ سيد قطب فى تفصيل ووضوح ، ويتلخص رأيه فى أن المرحلة الأولى تربية الانسان نفسه واعدادها للدعوة الاسلامية ثم دعوته لغيره وتربيته له حتى تتكون الجماعة الاسلامية الصحيحة ، ورأيه أن الجماعة لابد أن تتكون من أفراد صالحين كما كان فى العصر الأول»

ويظهر تصديقه فى صراحته وذلك حين أثنى عليه الحاضرون وقالوا له :

«إن الكتب العظيمة التى ألفتها لا تصدر إلا عن قلب مؤمن وعقيدة متينة وخلق مستقيم» .

---

(٢) مجلة الدعوة — العدد الرابع السنة ٢٥ سنة ١٩٧٦ م ص ٤١ .
(٣) مذكرات سائح فى الشرق العربى — أبو الحسن الندوى — مؤسسة الرسالة ط ١٩٧٥ م ص ١٨٨ .

فقال : «أنا لا أعتقد أنى استحق هذا الثناء والأمل ، وليس صدور الكتب دليلا على أن المؤلف اجتاز المراحل الأولى فى التربية الاسلامية وإعداد النفس ، وأنا أعرف معركة قائمة بين بيئتى وما أنا فيه من راحة ورخاء وفرص وبين ما يطلبه الايمان والجهاد من التضحية والايثار والزهد والقوة الروحية ، وأعرف أن المرحلة النهائية لاتزال بعيدة وإن الميزان ما ذكره القرآن : «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم» الآية التوبة٢٣ ...

فلا أريد أن أخدع نفسى ولا غيرى »

يقول الامام أبو الحسن الندوى معلقاً على قول سيد قطب :

«وقد أعجبتنى هذه الصراحة جدا وأصبحت أجل الاستاذ سيد قطب وأحبه أكثر من ذى قبل» (١)

وفى هذه المرحلة كذلك تحددت ملامح فكر الشهيد المتميزة والتى أوصلها الاستاذ يوسف العظم إلى عشرين خصيصة منها :

(الغزارة والشمول والايمان بالفكرة والعمق والمستقبلية والتفريق بين الاسلام والكهنوت والدعوة إلى استئناف الحياة الاسلامية ،

(١) مذكرات سائح فى الشرق العربى — ص ١٨٩ .

وكشف الحضارة المادية والاشراق والعذوبة والقوة والتحدى ، والتفرد وسعة الأفق وبعد النظر ...) (١) .

المرحلة الرابعة : من التصديق إلى الاستشهاد

* كان من الناس من يهتف به دوما :

«يا سيد ... لا تفجعنا فى نفسك !! فالاسلام يريدك حيا ... لأن الدعاة الأيقاظ ندرة فى هذا العصر ...)

ولكن ... على قدر أهل العزم تأتى العزائم ... فكان مع الشهادة على موعد (٢) .

* وفى داخل محكمة الدجوى يتبادل الابتسامات مع محاميه شوكت التونى الذى يقول :

«رأيت فيه جسدا لو حط عليه طائر — كما قيل — لهدمه وحطمه ولم استطع أن أجد كلمة أقولها إلا «شد حيلك» فرد على : كما عهدتنى (٣)

* لقد تكلم الشهيد فى المحكمة رغم مرضه وسنه إلا أنه قال للدجوى ما يعتقد... تكلم عن التعذيب الوحشى الذى تعرض له الأخوان(٤)...

---

(١) كتاب (رائد الفكر الاسلامى المعاصر : الشهيد سيد قطب» للاستاذ يوسف العظم .

(٢) زين الدين الركابى — معركتنا مع اليهود ط دار الايمان بيروت .

(٣) محاكات الدجوى — شوكت التونى ص ٢٨٥ .

(٤) انظر ما نشر أخيرا فى جريدة ( المسلمون ) العدد الثانى والكتاب ماثل للطبع : الى آخر ماخطه سيد قطب بيده عن التعذيب

فكان رد الفعل فى القاعة نظرات التشفى وقهقهات السخرية من القاضى والجلادين والمنافقين ... وكان يعرف مصيره ... لقد سنحت فرصة لأحد المتهمين فى داخل السجن ... فتحدث مع الشهيد يقول «قلت له : ماذا تنتظر ؟

فقال الرجل لى بابتسامة واثقة نابعة من صدر هادىء مطمئن :

«انتظر الوفود على ربى» (١)

* ولما خرج من محكمة الدجوى بعد أن أصدروا حكمهم عليه ، سأله أحدهم فى الخارج عن الحكم فأجابه هاشا باشا ... إنها الشهادة (٢) وهى التى دندن دوما من أجلها :

أخى ان نمت نلق أحبابنا — فجنات ربى اعدت لنا
وأطيارها رفرفت حولنا — فطوبى لنا فى ديار الخلود
فإن أنا مت فإنى شهيد — وأنت ستمضى لنصر مجيد
لقد أخذوك على إثرنا — وفوج على اثر فوج جديد

* وأعدموه ... ليقضوا على فكره ... فمضى إلى ربه .... وبقى فكره ... وأخذت الأجيال تردد ما ردده الشهيد من أعماقه :

ستزول فى الشمس الخديعة والضباب
وسترعوى عن ركبنا هذى الذئاب

---

(١) أحمد رائف — صفحات من تاريخ الاخوان ص ٢٠٧ ، ص ٢١٥ .
(٢) مجلة الدعوة العدد الرابع ص ٤١ ط ١٩٧٦ م .

وسيسقط الهبل الجديد وذو العقاب
وسيهلك الطاغوت فى شر المآب

* مشى الشهيد إلى أداة الموت ... وهو يبتسم ... فصنعت هذه الابتسامة أجيالا فريدة تتطلع إلى رفقته ... فمازالت ابتسامته حاضرة فى وجدان رفاقه تجدد أملا وتصنع مجداً وتحيي جيلا ...

يا شهيدا رفع الله به    جبهة الحق على طول المدى
سوف تبقى فى الحنايا علما    هاديا للركب رمزا للفدا
ما نسينا أنت قد علمتنا    بسمة المؤمن فى وجه الردى

وتحقق ما عبر الشهيد عنه :

«حين أفنى فى سبيل الله ... تحيا كلماتى» فهنىء بالشهادة فى سبيل الله ... وخلدت كلماته على مر الأيام والدهور ...

**٢ — منهجه فى ظلال القرآن :**

* «لقد حدد سيد قطب منهجه فى التفسير وخطته فى التأليف فقد كفانا — بل زاد عن الحاجة — ما ذخرت به كتب التفاسير المعروفة من الاغراق فى البحوث اللغوية والفقهية والكلامية والفلسفية وما إلى ذلك كله بسبيل مع التفريط فى بيان ما اشتمل عليه هذا الكتاب المعجز من نظم اقتصادية واجتماعية وسياسية لا نكاد نجد فى تلك

المؤلفات — على قيمتها وجلالها — محاولة لبيانها مع شدة الحاجة إليها» (١) .

* فما الذى جدده من منهج وخطة وكفى به الأمة وجاء على غير النحو الذى ألفناه ؟!

يقول الشهيد فى مقدمة الجزء الأول مجيبا على هذا التساؤل :

«قد يرى فريق من قراء هذا الظلال أنها لون من تفسير القرآن وقد يرى فريق آخر أنها عرض للمبادىء العامة للاسلام كما جاء بها القرآن ، وقد يرى فريق ثالث أنها محاولة لشرح ذلك الدستور الالهى فى الحياة والمجتمع ، أما أنا فلم اتعمد شيئا من هذا كله ، وما جاوزت أن أسجل خواطرى وأنا أحيا فى تلك الظلال .

كل ماحاولته ألا أغرق نفسى فى بحوث لغوية أو كلامية أو فقهية ، تحجب القرآن عن روحى وتحجب روحى عن القرآن . وما استطردت إلى غير ما يوحيه

---

(١) الدكتور محمد يوسف موسى الاستاذ بجامعة القاهرة — العدد الأول من المجلد ٢٥ من مجلة الأزهر ١٣٧٣ هـ .

النص القرآنى ذاته من خاطرة روحية أو اجتماعية أو انسانية ، وما أحفل القرآن بهذه الايحاءات ! ، كذلك حاولت أن أعبر عما خالج نفسى من احساس بالجمال الفنى العجيب فى هذا الكتاب المعجز ، ومن شعور بالتناسق فى التعبير والتصوير» ، ولذلك فإنك تشعر فى كل كلمة من كلماته بالحيوية والحركة تتفجر من خلال العبارات ، وهو حين يعرض الحقيقة يتذوقها ويتمثلها ثم يصوغها بعبارته الرشيقة وبيانه الجميل الذى يدخل القلوب دونما عناء أو كلل (١) ».

## ٣ — منهجه فى عرض الغزوات

### أولا : روح الغزوات عند سيد قطب

انفرد سيد قطب بمنهج خاص استقاه من القرآن الكريم ومن حقيقة النص القرآنى فى عرضه للغزوات فاتخذ من نهج القرآن منهجه وأسلوبه وهو ما نطلق عليه «**روح الغزوات**» والمتمثل فى كل من العمق والحيوية .

---

(١) أحمد حسن — فقه الدعوة — مؤسسة الرسالة ط ١٩٧٠ م .

فلم يعمد إلى العرض التسجيلى فى صورة أحداث وأشخاص ، ورواية وإنما غاص وتعمق فيما وراء الحدث أو الحركة الفردية حتى أقصى الحدود ، دون كلل أو ملل وهو ما نعنيه بالعمق .

أما الحيوية فقد نقل إلينا الغزوات بروحه ومشاعره وأحاسيسه فإذا بها حية نابضة بالنماء والحيوية ... حتى كأنك تعيش فى أجوائها وتتحرك مع أشخاصها — فتفرح لفرحهم وتحزن لحزنهم — عيشا يلائم كل وتر من أوتار أحاسيسك وكل نبضة من نبضات قلبك وعروقك (١) .

ولم تأت روح الغزوات المتمثلة فى العمق والحيوية — بدعة جديدة — فى عرضه للغزوات ... وإنما تكشفت ملامح هذه الروح من خلال النص القرآنى وطريقته وأسلوبه الالهى ... فسارعلى هديه وقد وضح الشهيد هذا المنهج بنفسه قائلا :

«إن النص القرآنى لا يتتبع أحداث المعركة للرواية والعرض ولكنه يتتبع دخائل النفوس وخوالج القلوب ويتخذ من الأحداث مادة تنبيه وتنوير وتوجيه . وهو لا يعرض الحوادث عرضا تاريخيا

---

(١) محمد قطب — كتاب سيد قطب أو ثورة الفكر ط دار الحديث لبنان .

مسلسلا بقصد التسجيل ، انما هو يعرضها للعبرة والتربية واستخلاص القيم الكامنة وراء الحوادث ، ورسم سمات النفوس ، وخلجات القلوب ، وتصوير الجو الذى صاحبها . والسنن الكونية التى تحكمها ، والمبادىء الباقية التى تقررها وبذلك تستحيل الحادثة محوراً أو نقطة ارتكاز لثروة ضخمة من المشاعر والسمات ، والنتائج والاستدلالات

يبدأ السياق منها ثم يستطرد حولها ، ثم يعود إليها ؛ ثم يجول فى أعماق الضمائر ، وفى أغوار الحياة ؛ ويكرر هذا مرة ، حتى ينتهى برواية الحادث إلى نهايتها وقد ضم جناحيه على حقل من المعانى ، والدلائل والقيم والمبادىء ، وينظر الانسان فى رقعة المعركة ، وما وقع منها — على سعته وتنوعه — ثم ينظر إلى رقعة التعقيب القرآنى ، وما تناوله من جوانب ، فإذا هذه الرقعة أوسع من تلك ، وأبقى على الزمن ، وألصق بالقلوب ، وأعمق فى النفوس ، وأقدر على تلبية حاجات النفس البشرية ، وحاجات الجماعة الاسلامية ، فى كل موقف تتعرض له فى هذا المجال ... على تتابع الأجيال ... فهى تتضمن الحقائق الباقية من وراء الأحداث الزائلة ، والمبادىء المطلقة من وراء الحوادث المفردة ، والقيم الأصيلة من وراء الظواهر

المعارضة ، والرصيد الصالح للتزود بغض النظر عن اعتبارات الزمان والمكان ...» .

ووفق هذا المنهج الواضح الأصيل سار فى عرضه للغزوات فى خطوات محددة ، ويمكننا أن نجملها فى ثلاث نقاط هامة :

أولا : بدأ بعرضها من السيرة لتعيش الجو الذى صاحبها واعتمد على مصادر السيرة الموثقة وأحال السرد والوقائع والأحداث إلى مصادرها المعتمدة .

**ثانيا** : ومن هذه النقطة المحورية سار مع القرآن الكريم وطريقته فى تناول الملابسات المختلفة كما بينه سيد قطب فى الفقرة السابقة فأجلى لنا روح الغزوات .

**ثالثا** : ثم التعقيب الفريد لتظل الغزوات بروحها حية فى ضمير الأمة على تتابع الأجيال واختلاف الزمان والمكان . وتركها كما يقول :

«... لكل قلب يتفتح بالايمان

فى أى زمان وفى أى مكان ...»

## ثانيا : واقعية الغزوات .

المقصود بالواقعية فى عرض الغزوات أنه لم يخاطب بها الفلاسفة والحكماء والمصلحين فتأتى فى صورة نظرية مثالية . وإنما عرض من خلالها الحقيقة الإسلامية الكاملة بشمولها وكليتها .. عرضها من خلال معركة واقعية وليست خيالا ، معركة يخوضها المجاهدون المؤمنون خلال عصور التاريخ المختلفة . ومن ثم جاءت الحركة بعد الفكرة والممارسة بعد المدارسة ... فبين للأمة أن المعركة بين الاسلام وخصومه أو بين الحركة الاسلامية وأعدائها ... هى مستمرة ومتواصلة ... فاختار حقيقتين كبيرتين ونوه المجاهدين فى كل عصر وآن إليهما ... ذلك وهو يعرض الغزوات فى صورة حركية من واقع متحرك ... والحقيقتان هما : حقيقة الأعداء ... وحقيقة الانتصار

**فكأنى بالأولى** : تحدد للأجيال (من تحاربون ؟) فتتحدد طبيعة المعركة وخوضها والسير فيها .

**وأما الثانية** : فيها يبقى على الأجيال قوة المواصلة إن هم أصبحت لهم الغلبة والانتصار مما يضمن للأمة السير المتواصل لتحقيق الهدف والغاية .

١ – حقيقةالأعداء :

ونترك الشهيد بقلبه وشعوره يحدثنا فيقول :

«نرى أن أعداء الجماعة المسلمة لم يكونوا يحاربونها فى الميدان بالسيف والرمح فحسب ، ولم يكونوا يؤلبون عليها الأعداء ليحاربوها بالسيف والرمح فحسب ... إنما كانوا يحاربونها :

أولا : فى عقيدتها

كانوا يحاربونها بالدس والتشكيك ، ونثر الشبهات وتدبير المناورات» .

ثم ينبه الأمة الاسلامية فى عصره إلى ما يتحقق فيها : قائلا :

«ذلك أنهم كانوا يدركون – كما يدركون اليوم تماما – أن هذه الأمة لا تؤتى إلا من هذا المدخل» .

وهذه الحقيقة باقية لا تتغير عبر الأجيال فيخاطب الأجيال بعد أن نبه أمته :

«ومن هنا يبدو أن أعداء هذه الأمة هو الذى يلهيها عن عقيدتها الايمانية ، ويحيد بها عن منهج الله وطريقه ، ويخدعها عن حقيقة أعدئها وحقيقة أهدافهم البعيدة» .

ومن خلال عرضه للغزوات أفصح وكشف النقاب عن

الأعداء وطريقتهم واختلافهم وأنواعهم وطبيعتهم فى كل غزوة على حدة .

**٢ — حقيقة الانتصار :**

ويستقى الاستاذ هذه الحقيقة من أول انتصار للمسلمين فى بدر حين نزلت الآيات منذ الوهلة الأولى .

**«وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم»**

ثم نجده مع كل غزوة ينوه لأسباب الانتصار وعدم تحققه أو الابتعاد عنه ... ليجدد للأجيال حالها ولما يبطىء عنها النصر ... فيقول فى تفسير أول آيات الانتصار :

* حرص القرآن الكريم على تقرير هذه القاعدة فى التصور الاسلامى ، وعلى تنقيتها من كل شائبة ، وعلى تنمية الأسباب الظاهرة والوسائل والأدوات على أن تكون هى الفاعلة ... لتبقى الصلة المباشرة بين العبد وربه .. بين قلب مؤمن وقدر الله .. بلا حواجز ولا عوائق ولا وسائل ولا وسائط .. كما هى فى عالم الحقيقة

ثم نراه وكأنه يودع هذه الحقيقة فى قلوب الأجيال بوصية عزيزة :

«عرفوا أن الله هو الفاعل — وحده — وعرفوا كذلك أنهم

مأمورون من قبل الله باتخاذ الوسائل والأسباب وبذل الجهد، والوفاء بالتكاليف فاستيقنوا الحقيقة ، وأطاعوا الأمر ، فى توازن شعورى وحركى عجيب» .

وبعد أن يرسم هذه الحقيقة يسير معها فى الغزوات كما قلنا كلا على حده وقد أجمل ذلك بقوله :

«ولكن هذا (أى وضوح هذه الحقيقة) إنما جاء .

* مع الزمن .
* مع الأحداث .
* ومع التربية بالأحداث .
* والتربية بالتعقيب على الأحداث ...»

وهذا ما نراه واضحاً ونحن نقرأ الغزوات بإذن الله تعالى .

**... وأخيرا .**

* لقد جاءت هذه الغزوات لتقرر فى أذهان المجاهدين إلى يوم الدين حقائق ضخمة عاشها الأوائل وتحركوا بها ، وهى حقائق نافعة لنا ونحن فى طريقنا إلى استئناف حياة اسلامية بعون الله .

* كما جاءت هذه الغزوات حية من وراء الأسباب والأحداث والأشخاص والحركات ... بتصور اسلامى شامل كامل ... يستقر

فى النفس من وراء الأحداث والتعقيب المنير عليها من الداعية الفذ صاحب الظلال الشهيد سيد قطب ...

* ويسر دار الدعوة أن تهدى هذه الحقائق للعالم الاسلامى وهى مبتهجة بكمال التصور ... وجلال الفهم ... نفع الله بها وأثـــاب صاحبها الجنة ...

الاسكندرية فى ١٩٨٥/١/٢٧ م

**جمال ماضى**

**دار الدعوة ـ بالاسكندرية**

# بين يدى الغزوة

١ — مفهوم الجهاد فى الاسلام .

٢ — لماذا كان الجهاد ؟

٣ — ما قبل بدر .

«سرية عبد الله بن جحش»

## أولا : مفهوم الجهاد فى الاسلام :

### غزوة بدر الكبرى

غزوة بدر — بملابساتها وبما ترتب عليها فى تاريخ الحـــركة الإسلامية وفى التاريخ البشرى جملة — تقوم معلماً ضخماً فى طريق تلك الحركة وفى طريق هذا التاريخ .

**وقد** سمى الله — سبحانه — **يومها «يوم الفرقان يوم التقى الجمعان»** كما أنه جعلها مفرق الطريق بين الناس فى الآخرة كذلك لا فى هذه الأرض وحدها ؛ ولا فى التاريخ البشرى على هذه الأرض فى الحياة الدنيا وحدها . فقال سبحانه : **«هذان خصمان اختصموا فى ربهم : فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ، يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما فى بطونهم والجلود . ولهم مقامع من حديد . كلما أرادوا أن يخرجوا منها — من غم — أعيدوا فيها ، وذوقوا عذاب الحريق .. إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ، ولباسهم فيها حرير . وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد ..»** .. (الحج : ١٩ — ٢٤) وقد ورد أن هذه الآيات نزلت فى الفريقين اللذين ألتقيا يوم بدر . يوم الفرقان .. لا فى الدنيا وحدها

ولا فى التاريخ البشرى على الأرض وحدها ؛ ولكن كذلك فى الآخرة وفى الأبد الطويل .. وتكفى هذه الشهادة من الجليل ـ سبحانه لتصوير ذلك وتقديره .. وسنعرف شيئاً من قيمة هذا اليوم ، حين نستعرض الوقعة وملابساتها ونتائجها ..

ومع كل عظمة هذه الغزوة ، فإن قيمتها لا تتضح أبعادها الحقيقية إلا حين نعرف طبيعتها وحين نراها حلقة من حلقات «الجهاد فى الإسلام» ، وحين ندرك بواعث هذا الجهاد وأهدافه . كذلك نحن لا ندرك طبيعة «الجهاد فى الإسلام» وبواعثه وأهدافه ، قبل أن نعرف طبيعة هذا الدين ذاته ..

لقد لخص الإمام ابن القيم سياق الجهاد فى الإسلام فى «زاد المعاد» ، فى الفصل الذى عقده باسم : «فصل فى ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى حين لقى الله عز وجل : أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى : أن يقرأ باسم ربه الذى خلق . وذلك أول نبوته . فأمره أن يقرأ فى نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ . ثم أنزل عليه : **«يا أيها المدثر . قم فأنذر»** فنبأه بقوله : **«اقرأ»** ، وأرسله بـ **«يا أيها المدثر»** . ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين . ثم أنذر قومه . ثم أنذر من حولهم من العرب . ثم أنذر العرب قاطبة .

ثم أنذر العالمين . فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ؛ ويؤمر بالكف والصبر والصفح . ثم أذن لـه فى الهجرة ، وأذن له فى القتال . ثم أمره أن يقاتل من قاتله ، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله . ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله .. ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام : أهل صلح وهدنة . وأهل حرب . وأهل ذمة .. فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم ، وأن يوفى لهم به ما استقاموا على العهد ؛ فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد . وأمر أن يقاتل من نقض عهده .. ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها : فأمر أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا فى الإسلام . وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم . فجاهد الكفار بالسيف والسنان ، والمنافقين بالحجة واللسان . وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ونبذ عهودهم إليهم .. وجعل أهل العهد فى ذلك ثلاثة أقسام : قسماً أمره بقتالهم وهم الذين نقضوا عهده ، ولم يستقيموا له ، فحاربهم وظهر عليهم . وقسماً لهم عهد موقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه ، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم . وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه ؛

أو كان لهم عهد مطلق ، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر ؛ فإذا انسلخت قاتلهم .. فقتل الناقض لعهده ؛ وأجل من لا عهد له ، أو له عهد مطلق ، أربعة أشهر . وأمره أن يتم للموفى بعهده عهده إلى مدته ؛ فأسلم هؤلاء كلهم ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم . وضرب على أهل الذمة الجزية .. فاستقر امر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام : محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة .. ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام فصاروا معه قسمين : محاربين وأهل ذمة . والمحاربون له خائفون . فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به . ومسالم له آمن .. وأما سيرته فى المنافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ؛ ويكل سرائرهم إلى الله ؛ وأن يجاهدهم بالعلم والحجة ؛ وأمر أن يعرض عنهم ، ويغلظ عليهم ، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ، ونهى أن يصلى عليهم ، وأن يقوم على قبورهم ، وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم .. فهذه سيرته فى أعدائه من الكفار والمنافقين» .. .

ومن هذا التلخيص الجيد لمراحل الجهاد فى الإسلام تتجلى سمات أصيلة وعميقة فى المنهج الحركى لهذا الدين ، جديرة بالوقوف

أمامها طويلا . ولكننا فى هذه الظلال لا نملك إلا أن نشير إليهـــا إشارات مجملة :

* **السمة الأولى** : هى الواقعية الجدية فى منهج هذا الدين .. فهو حركة تواجه واقعاً بشرياً .. وتواجهه بوسائل مكافئة لوجـــوده الواقعى .. إنها تواجه جاهلية اعتقادية تصورية ؛ تقوم عليها أنظمة واقعية عملية ؛ تسندها سلطات ذات قوة مادية .. ومن ثم تواجه الحركة الإسلامية هذا الواقع كله بما يكافئه .. تواجهه بالدعـوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات وتواجهه بالقوة والجهـاد لإزالة الأنظمة والسلطات القائمة عليها ؛ تلك التى تحول بين جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات ؛ وتخضعهم بالقهر والتضليل وتعبدهم لغير ربهم الجليل .. إنها حركة لا تكتفى بالبيان فى وجه السلطان المـادى . كما أنها لا تستخدم القهر المـادى لضمائر الأفراد .. وهذه كتلك سواء فى منهج هذا الدين وهو يتحرك لإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده كما سيجىء .

* **والسمة الثانية** : فى منهج هذا الدين .. ه الواقعية الحركية . فهو حركة ذات مراحل . كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتهـــا وحاجاتها الواقعية . وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التى تليها .. فهو

لا يقابل الواقع بنظريات مجردة . كما أنه لا يقابل مراحل هذاالواقع بوسائل متجمدة .. والذين يسوقون النصوص القرآنية للاستشهاد بها على منهج هذا الدين فى الجهاد ، ولا يراعون هذه السمة فيه ، ولا يدركون طبيعة المراحل التى مر بها هذا المنهج ، وعلاقة النصوص المختلفة بكل مرحلة منها .. الذين يصنعون هذا يخلطون خلطاً شديداً ؛ ويلبسون منهج هذا الدين لبساً مضللا ، ويحملون النصوص مالا تحتمله من المبادىء والقواعد النهائية . ذلك أنهم يعتبرون كل نص منها كما لو كان نصاً نهائياً ؛ يمثل القواعد النهائية فى هذا الدين . ويقولون — وهم مهزومون روحياً وعقلياً ضغط الواقع اليائـــس لذرارى المسلمين الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان — : إن الإسلام لا يجاهد إلا للدفاع ! ويحسبون أنهم يسدون إلى هذا الدين جميلا بتخليه عن منهجه وهو إزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعاً ، وتعبيد الناس لله وحده ، وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد ! لا بقهرهم على اعتناق عقيدته . ولكن بالتخلية بينهم وبين هذه العقيدة .. بعد تحطيم .

الأنظمة السياسية الحاكمة ، أو قهرها حتى تدفع الجزية وتعلن

استسلامها والتخيلة بين جماهيرها وهذه العقيدة تعتنقها أولا تعتنقها بكامل حريتها...

* والسمة الثالثة : هى أن هذه الحركة الدائبة ، والوسائل المتجددة لا تخرج هذا الدين عن قواعده المحددة ، ولا عن أهدافه المرسومة . فهو منذ اليوم الأول — سواء وهو يخاطب العشيرة الأقربين ، أو يخاطب قريشاً ، أو يخاطب العرب أجمعين ، أو يخاطب العالمين ، إنما يخاطبهم بقاعدة واحدة ؛ ويطلب منهم الانتهاء إلى هدف واحد هو إخلاص العبودية لله ، والخروج من العبودية للعباد .. لامساومة فى هذه القاعدة ولا لين . ثم يمضى إلى تحقيق هذا الهدف الواحد ، فى خطة مرسومة ، ذات مراحل محددة ؛ لكل مرحلة وسائلها المتجددة . على نحو ما أسلفنا فى الفقرة السابقة .

* والسمة الرابعة : هى ذلك الضبط التشريعى للعلاقات بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات الأخرى ، — على النحو الملحوظ فى ذلك التلخيص الجيد الذى نقلناه عن «زاد المعاد» . وقيام ذلك الضبط على أساس أن الإسلام لله هو الأصل العالمى الذى على البشرية كلها أن تفىء إليه ؛ أو أن تسالمه بجملتها فلا تقف لدعوته بأى حائل من نظام سياسى ، أو قوة مادية . وأن تخلى بينه وبين كل فرد ، يختاره أو

لا يختاره بمطلق إرادته . ولكن لا يقاومه ولا يحاربه ! فإن فعل ذلك أحد كان على الإسلام أن يقاتله حتى يقتله أو حتى يعلن استسلامه !

## ثانياً : لماذا كان الجهاد ؟

لقد بين الله للمؤمنين فى أول ما نزل من الآيات التى أذن لهم فيها بالقتال أن الشأن الدائم الأصيل فى طبيعة هذه الحياة الدنيا أن يدفع الناس بعضهم ببعض، لدفع الفساد عن الأرض : «**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً**».. وإذن فهو الشأن الدائم لا الحالة العارضة . الشأن الدائم أن لا يتعايش الحق والباطل فى هذه الأرض . وأنه متى قام الإسلام بإعلانه العام لإقامة ربوبية الله للعالمين ، وتحرير الإنسان من العبودية للعباد ، رماه المغتصبون لسلطان الله فى الأرض ولم يسالموه قط ؛ وانطلق هو كذلك يدمر عليهم ليخرج الناس من سلطانهم ويدفع عن «الإنسان» فى «الأرض» ذلك السلطان الغاصب .. حال دائمة لا يكف معها الانطلاق الجهادى التحريرى حتى يكون الدين كله لله .

إن الكف عن القتال فى مكة لم يكن إلا مجرد مرحلة فى خطة طويلة . كذلك كان الأمر أول العهد بالهجرة . والذى بعث الجماعة المسلمة فى المدينة بعد الفترة الأولى للانطلاق لم يكن مجرد تأمين المدينة .. هذا هدف أولى لابد منه .. ولكنه ليس الهدف الأخير .. إنه هدف يضمن وسيلة الانطلاق ؛ ويؤمن قاعدة الانطلاق ... الانطلاق لتحرير «الإنسان» ، ولإزالة العقبات التى تمنع «الإنسان» ذاته من الانطلاق !

وكف أيدى المسلمين فى مكة عن الجهاد بالسيف مفهوم . لأنه كان مكفولا للدعوة فى مكة حرية البلاغ .. كان صاحبها — صلى الله عليه وسلم — يملك بحماية سيوف بنى هاشم ، أن يصدع بالدعوة ؛ ويخاطب بها الآذان والعقول والقلوب ؛ ويواجه بها الأفراد .. لم تكن سلطة سياسية منظمة تمنعه من إبلاغ الدعوة ، أو تمنع الأفراد من سماعه ! فلا ضرورة — فى هذه المرحلة — لاستخدام القوة . وذلك إلى أسباب أخرى لعلها كانت قائمة فى هذه المرحلة . وقد لخصناها عند تفسير قوله تعالى : «**ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ...**» من سورة النساء. ولا نرى بأساً فى إثبات بعض هذا التلخيص هنا مرة أخرى .

(١) «ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربيةوإعداد فى بيئة معينة ، لقوم معينين ، وسط ظروف معينة . ومن أهداف التربية والإعداد فى مثل هذه البيئة بالذات ، تربية نفس الفردالعربى على الصبر على مالا يصبر عليه عادة من الضيم على شخصه أو على من يلوذون به . وتربيته كذلك على ضبط أعصابه ، فلا يندفع لأول مؤثر — كما هى طبيعته — ولا يهتاج لأول مهيج ، ليتم الاعتدال فى طبيعته وحركته . وتربيته على أن يتبع مجتمعاً منظماً له قيادة يرجع إليها فى كل أمر من أمور حياته ، ولا يتصرف إلا وفق ما تأمره به — مهما يكن مخالفاً لمألوفه وعادته — وقد كان هذا هو حجر الأساس فى إعداد شخصية العربى ، لإنشاء «المجتمع المسلم» الخاضع لقيادة موجهة ، المترقى المتحضر ، غير الهمجى أو القبلى !

(٢) «وربما كان ذلك أيضاً ، لأن الدعوة السلمية كانت أشد أثراً وأنفذ ، فى مثل بيئة قريش ، ذات العنجهية والشرف ؛ والتى قد يدفعها القتال معها — فى مثل هذه المرحلة — إلى زيادة العناد ، وإلى نشأة ثارات دموية جديدة كثارات العرب المعروفة . وتكون هذه الثارات الجديدة مرتبطة فى أذهانهم وذكرياتهم بالإسلام . فلا تهدأ بعد ذلك أبداً . ويتحول الإسلام من دعوة إلى ثارات وذحول

تنسى معها وجهته الأساسية ، وهو فى مبدئه ، فلا تذكر أبداً ! .

(٣) «وربما كان ذلك أيضاً ، اجتناباً لإنشاء معركة ومقتلة فى داخل كل بيت . فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة ، هى التى تعذب المؤمنين وتفتنهم . إنما كان ذلك موكولا إلى أولياء كل فرد ، يعذبونه ويفتنونه «ويؤدبونه !» ومعنى الإذن بالقتال — فى مثل هذه البيئة — أن تقع معركة ومقتلة فى كل بيت .. ثم يقال : هذا هو الإسلام ! ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال ! فقد كانت دعاية قريش فى الموسم . فى أوساط العرب القادمين للحج والتجارة : إن محمداً يفرق بين الوالد وولده ، فوق تفريقه لقومه وعشيرته ! فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد ، والمولى بقتل الولى .. فى كل بيت وفى كل محلة ؟

(٤) «وربما كان ذلك أيضاً لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم ، ويعذبونهم ويؤذونهم ، هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص ، بل من قادته .. ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء ؟ !

(٥) «وربما كان ذلك أيضاً ، لأن النخوة العربية ، فى بيئة قبلية ، من عادتها أن تثور للمظلوم الذى يحتمل الأذى ، ولايتراجع

وبخاصة إذا كان الأذى واقعاً على كرام الناس فيهم .. وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة — فى هذه البيئة — فابن الدغنة لم يرض أن يترك أبا بكر — وهو رجل كريم — يهاجر ويخرج من مكة ، ورأى فى ذلك عاراً على العرب ! وعرض عليه جواره ، وحمايته .. وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبنى هاشم فى شعب أبى طالب ، بعدما طال عليهم الجوع واشتدت المحنة .. بينما فى بيئة أخرى من بيئات «الحضارة» القديمة التى مردت على الذل ، قد يكون السكوت على الأذى مدعاة للهزء والسخرية والاحتقار من البيئة ، وتعظيم المؤذى الظالم المعتدى !

(٦) «وربما كان ذلك ، أيضاً ، لقلة عدد المسلمين حينذاك ، وانحصارهم فى مكة : حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة ، أو بلغت أخبارها متناثرة ، حيث كانت القبائل تقف على الحياد من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها ، حتى ترى ماذا يكون مصير الموقف . فى مثل هذه الحالة قد تنتهى المعركة المحدودة ، إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة — حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم — ويبقى الشرك ، وتنمحى الجماعة المسلمة ، ولم يقم فى الأرض للإسلام نظام ، ولا وجد له كيان واقعى .. وهو دين جاء ليكون

منهاج حياة ، وليكون نظاماً واقعياً عملياً للحياة .

«... الخ» ...

فأما فى المدينة — فى أول العهد بالهجرة — فقد كانت المعاهدة التى عقدها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مع اليهود من أهلها ومن بقى على الشرك من العرب فيها وفيما حولها ، ملابسة تقتضيها طبيعة المرحلة كذلك ..

أولا : لأن هناك مجالا للتبليغ والبيان ، لا تقف له سلطة سياسية تمنعه وتحول بين الناس وبينه ، فقد اعترف الجميع بالدولة المسلمة الجديدة ؛ وبقيادة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى تصريف شؤونها السياسية . فنصت المعاهدة على ألا يعقد أحد منهم صلحاً ولا يثير حرباً ، ولا ينشيء علاقة خارجية إلا بإذن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكان واضحاً أن السلطة الحقيقية فى المدينة فى يد القيادة المسلمة . فالمجال أمام الدعوة مفتوح ، والتخلية بين الناس وحرية الاعتقاد قائمة .

ثانيا : أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — كان يريد التفرغ — فى هذه المرحلة — لقريش ؛ التى تقوم معارضتها لهذا الدين حجر عثرة فى وجه القبائل الأخرى ؛ الواقفة فى حالة انتظار لما ينتهى إليه

الأمر بين قريش وبعض بنيها ! لذلك بادر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بإرسال «السرايا» وكان أول لواء عقده لحمزة بن عبد المطلب فى شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من الهجرة .

ثم توالت هذه السرايا ، على رأس تسعة أشهر . ثم على رأس ثلاثة عشر شهراً . ثم على رأس ستة عشر شهراً . ثم كانت سرية عبد الله بن جحش فى رجب على رأس سبعة عشر شهراً . وهى أول غزاة وقع فيها قتل وقتال . وكان ذلك فى الشهر الحرام . والتى نزلت فيها آيات البقرة : «**يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ! قل قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل.ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ...**» .

ثم كانت غزوة بدر الكبرى فى رمضان من هذه السنة .

ورؤية الموقف من خلال ملابسات الواقع ، لا تدع مجالا للقول بأن «الدفاع» بمفهومه الضيق كان هو قاعدة الحركة الإسلامية كما يقول المهزومون أمام الواقع الحاضر ، وأمام الهجوم الاستشراقى الماكر !

إن الذين يلجأون إلى تلمس أسباب دفاعية بحتة لحركة المد

الإسلامى ، إنما يؤخذون بحركة الهجوم الاستشراقية ، فى وقت لم تعد للمسلمين شوكة بل لم يعد للمسلمين إسلام ! — إلا من عصم الله ممن يصرون على تحقيق إعلان الإسلام العام بتحرير «الإنسان» فى «الأرض» من كل سلطان إلا سلطان الله ، ليكون الدين كله لله — فيبحثون عن مبررات أدبية للجهاد فى الإسلام !

**٣ — سرية عبد الله بن جحش :**

لم تكن غزوة بدر الكبرى هى أولى حركات الجهاد الاسلامى فقد سبقتها عدة سرايا لم يقع قتال إلا فى واحدة منها هى سرية عبدالله بن جحش ، وكان ذلك فى الشهر الحرام . والتى نزلت فيها آيات البقرة : **«يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ! قل : قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ، وإخراج أهـــله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل . ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ...»** .

وقد جاء فى روايات متعددة أنها نزلت فى سرية عبد الله بن جحش — رضى الله عنه — وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم قد بعثه مع ثمانية من المهاجرين ليس فيهم أحد من الأنصار ومعه كتاب مغلق وكلفه ألا يفتحه حتى يمضى ليلتين . فلما فتحه وجد به : «إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل بطن نخلة — بين

مكة والطائف — ترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم ..ولاتكرهن أحداً على المسير معك من أصحابك» — وكان هذا قبل غزوة بدر الكبرى . فلما نظر عبد الله بن جحش فى الكتاب قال : سمعاً وطاعة ثم قال لأصحابه : قد أمرنى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن أمضى إلى بطن نخلة أرصد بها قريشاً حتى آتيه منها بخبر . وقد نهى أن أستكره أحداً منكم . فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ومن كره ذلك فليرجع ، فأنا ماض لأمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف أحدمنهم فسلك الطريق على الحجاز حتى إذا كان ببعض الطريق ضل بعير لسعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان — رضى الله عنهما — فتخلفا عن رهط عبد الله بن جحش ليبحثا عن البعير ومضى الستة الباقون . حتى إذا كانت السرية ببطن نخلة مرت عير لقريش تحمل تجارة ، فيها عمرو بن الحضرمى وثلاثة آخرون ، فقتلت السرية عمرا ابن الحضرمى وأسرت اثنين وفر الرابع وغنمت العير . وكانت تحسب أنها فى اليوم الأخير من جمادى الآخرة . فإذا هى فى اليوم الأول من رجب — وقد دخلت الأشهر الحرم — التى تعظمها العرب . وقد عظمها الإسلام وأقر حرمتها .. فلما قدمت السرية بالعير والأسيرين

على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : «ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام» . فوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً فلما قال ذلك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سقط فى أيدى القوم ، وظنوا أنهم قد هلكوا ؛ وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا . وقالت قريش : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال . وقالت اليهود تفاءلوا بذلك على محمد .. عمرو بن الحضرمى قتله واقد بن عبد الله .. عمرو : عمرت الحرب . والحضرمى : حضرت الحرب وواقد بن عبد الله : وقدت الحرب ! .

وانطلقت الدعاية المضللة على هذا النحو بشتى الأساليب الماكرة التى تروج فى البيئة العربية ، وتظهر محمداً وأصحابه بمظهر المعتدى الذى يدوس مقدسات العرب ، وينكر مقدساته هو كذلك عند بروز المصلحة ! حتى نزلت هذه النصوص القرآنية . فقطعت كل قول . وفصلت فى الموقف بالحق . فقبض الرسول — صلى الله عليه وسلم — الأسيرين والغنيمة .

**«يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل قتال فيه كبير» ..**

نزلت تقرر حرمة الشهر الحرام ، وتقرر أن القتال فيه كبيرة ، نعم ! ولكن : . . .

**«وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله . والفتنة أكبر من القتل» ..**

إن المسلمين لم يبدأوا القتال ، ولم يبدأوا العدوان . إنما هم المشركون . هم الذين وقع منهم الصد عن سبيل الله ، والكفر به وبالمسجد الحرام . لقد صنعوا كل كبيرة لصد الناس عن سبيل الله ولقد كفروا بالله وجعلوا الناس يكفرون . ولقد كفروا بالمسجد الحرام . انتهكوا حرمته ؛ فآذوا المسلمين فيه ، وفتنوهم عن دينهم طوال ثلاثة عشر عاماً قبل الهجرة . وأخرجوا أهله منه ، وهو الحرم الذى جعله الله آمناً ، فلم يأخذوا بحرمته ولم يحترموا قدسيته .

وإخراج أهله منه أكبر عند الله من القتال فى الشهر الحرام .. وفتنة الناس عن دينهم أكبر عند الله من القتل . وقد ارتكب المشركون هاتين الكبيرتين فسقطت حجتهم فى التحرز بحرمة البيت الحرام وحرمة الشهر الحرام ، ووضح موقف المسلمين فى دفع هؤلاء المعتدين على الحرمات ؛ الذين يتخذون منها ستاراً حين يريدون ، وينتهكون قداستها حين يريدون ! وكان على المسلمين أن يقاتلوهم أنى وجدوهم ، لأنهم عادون باغون أشرار ، لا يرقبون حرمة ، ولا يتحرجون أمام قداسة . وكان على المسلمين ألا يدعوهم

يختمون بستار زائف من الحرمات التي لا احترام لها في نفوسهم ولا قداسة ! .

لقد كانت كلمة حق يراد بها باطل . وكان التلويح بحرمة الشهر الحرام مجرد ستار يحتمون خلفه ، لتشويه موقف الجماعة المسلمة ، وإظهارها بمظهر المعتدى .. وهم المعتدون ابتداء . وهم الذين انتهكوا حرمة البيت ابتداء .

إن الإسلام منهج واقعي للحياة . لا يقوم على مثاليات خيالية جامدة في قوالب نظرية . إنه يواجه الحياة البشرية — كما هي — بعوائقها وجواذبها وملابساتها الواقعية . يواجهها ليقودها قيادة واقعية إلى السير وإلى الارتقاء في آن واحد . يواجهها بحلول عملية تكافىء واقعياتها ، ولا ترفرف في خيال حالم ، ورؤى مجنحة : لا تجدى على واقع الحياة شيئاً ! .

هؤلاء قوم طغاة بغاة معتدون . لا يقيمون للمقدسات وزناً ، ولا يتحرجون أمام الحرمات ، ويدوسون كل ما تواضع المجتمع على احترامه من خلق ودين وعقيدة . يقفون دون الحق فيصدون الناس عنه ، ويفتنون المؤمنين ويؤذونهم أشد الإيذاء ، ويخرجونهم من البلد الحرام الذي يأمن فيه كل حي حتى الهوام ! .. ثم بعد ذلك

كله يتسترون وراء الشهر الحرام ، ويقيمون الدنيا ويقعدونها باسم الحرمات والمقدسات ، ويرفعون أصواتهم : انظروا ها هو ذا محمد ومن معه ينتهكون حرمة الشهر الحرام ! .

فكيف يواجههم الإسلام ؟ يواجههم بحلول مثالية نظرية طائرة إنه إن يفعل يجرد المسلمين الأخيار من السلاح ، بينما خصومهم البغاة الأشرار يستخدمون كل سلاح ، ولا يتورعون عن سلاح .. ! كلا إن الإسلام لا يصنع هذا ، لأنه يريد مواجهة الواقع ، لدفعه ورفعه . يريد أن يزيل البغي والشر ، وأن يقلم أظافر الباطل والضلال ويريد أن يسلم الأرض للقوة الخيرة ، ويسلم القيادة للجماعة الطيبة . ومن ثم لا يجعل الحرمات متاريس يقف خلفها المفسدون البغاة الطغاة ليرموا الطيبين الصالحين البناة ، وهم فى مأمن من رد الهجمات ومن نبل الرماة ! .

إن الإسلام يرعى حرمات من يرعون الحرمات ، ويشدد فى هذا المبدأ ويصونه . ولكنه لا يسمح بأن تتخذ الحرمات متاريس لمن ينتهكون الحرمات ، ويؤذون الطيبين ، ويقتلون الصالحين ، ويفتنون المؤمنين ، ويرتكبون كل منكر وهم فى منجاة من القصاص تحت ستار الحرمات التى يجب أن تصان ! .

وهو يمضى فى هذا المبدأ على اطراد .. إنه يحرم الغيبة .. ولكن لا غيبة لفاسق .. فالفاسق الذى يشتهر بفسقه لا حرمة له يعف عنها الذين يكتوون بفسقه . وهو يحرم الجهر من القول . ولكنه يستثنى «إلا من ظلم» .. فله أن يجهر فى حق ظالمه بالسوء من القول ، لأنه حق . ولأن السكوت عن الجهر به يطمع الظالم فى الاحتماء بالمبدأ الكريم الذى لا يستحقه !

ومع هذا يبقى الإسلام فى مستواه الرفيع لا يتدنى إلى مستوى الأشرار البغاة . ولا إلى أسلحتهم الخبيثة ووسائلهم الخسيسة .. إنه فقط يدفع الجماعة المسلمة إلى الضرب على أيديهم ، وإلى قتالهم وقتلهم ، وإلى تطهير جو الحياة منهم .. هكذا جهرة وفى وضح النهار ..

وحين تكون القيادة فى الأيدى النظيفة الطيبة المؤمنة المستقيمة ، وحين يتطهر وجه الأرض ممن ينتهكون الحرمات ويدوسون المقدسات .. حينئذ تصان للمقدسات حرمتها كاملة كما أرادها الله .

هذا هو الإسلام .. صريحاً واضحاً قوياً دامغاً ، لا يلف ولا يدور ؛ ولا يدع الفرصة كذلك لمن يريد أن يلف من حوله وأن يدور .

وهذا هو القرآن يقف بالمسلمين على أرض صلبة ، لا تتأرجح فيها أقدامهم ، وهم يمضون فى سبيل الله ، لتطهير الأرض من الشر والفساد ، ولا يدع ضمائرهم قلقة متحرجة تأكلها الهواجس وتؤذيها الوساوس .. هذا شر وفساد وبغى وباطل .. فلا حرمة له إذن ، ولا يجوز أن يتترس بالحرمات ، ليضرب من ورائها الحرمات ! وعلى المسلمين أن يمضوا فى طريقهم فى يقين وثقة ؛ فى سلام مع ضمائرهم ، وفى سلام من الله . . .

# غزوة بدر الكبرى

## أولا : تمهيــد

١ ـ معركة فى ميدان النفس .

٢ ـ يوم الفرقان .

تمهـيد :

١ — معركة فى ميدان النفس :

**«كما أخرجك ربك من بيتك بالحـق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ، يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون» ! .**

روى الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره — بإسناده — عن أبى أيوب الأنصارى قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ونحن بالمدينة : «إنى أخبرت عن عير أبى سفيان بأنها مقبلة ، فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله أن يغنمناها ؟» فقلنا : نعم . فخرج وخرجنا . فلما سرنا يوماً أو يومين قال لنا : «ما ترون فى قتال القوم ؟ إنهم قد أخبروا بخروجكم !» فقلنا : لا والله ما لنا طاقة بقتال العدو ، ولكنا أردنا العير ! ثم قال : «ما ترون فى قتال القوم ؟» فقلنا مثل ذلك : فقال المقداد بن عمرو : إذن لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى : «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ...» فتمنينا — معشر الأنصار — أن لو قلنا كما قال المقداد بن عمرو أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم ! قال : فأنزل الله على رسوله — صلى الله عليه وسلم — : **«كما أخرجك ربك**

**من بيتك بالحق ، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون»** .

فهذا ما حاك فى نفوس فريق من المسلمين يومئذ ، وما كرهوا من أجله القتال ، حتى ليقول عنهم القرآن الكريم : **«كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون»** .. وذلك بعد ما تبين الحق ، وعلموا أن الله وعدهم إحدى الطائفتين وأنه لم يبق لهم خيار بعدما أفلتت إحدى الطائفتين وهى — العير — وأن عليهم أن يلقوا الطائفة الأخرى ، وقد قدر الله لهم لقاءها وقدر أنها ستكون لهم . كانت ما كانت. كانت العير أو كانت النفير . كانت الضعيفة التى لا شوكة لها أم كانت القوية ذات الشوكة والمنعة .

وإنها لحال تتكشف فيها النفس البشرية أمام الخطر المباشر ؛ ويتجلى فيها أثر المواجهة الواقعية — على الرغم من الاعتقاد القلبى — والصورة التى يرسمها القرآن هنا جديرة بأن تجعلنا نتواضع فى تقديرنا لمتطلبات الاعتقاد فى مواجهة الواقع ؛ فلا نغفل طاقة النفس البشرية وذبذباتها عند المواجهة ، ولا نيأس من أنفسنا ولا من النفس البشرية جملة حين نراها تهتز فى مواجهة الخطر — على الرغم من طمأنينة القلب بالعقيدة — فحسب هذه النفس أن تثبت بعد ذلك وتمضى فى الطريق ، وتواجه الخطر فعلا ، وتنتصر على الهزة الأولى ! .. لقد

كان هؤلاء هم أهل بدر ، الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر اطلاعة ، فقال اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم** (١)» .. وهذا يكفى ..

ولقد بقيت العصبة المسلمة تود أن لو كانت غير ذات الشوكة هى التى كتب الله عليهم لقاءها . هذا ما أرادته العصبة المسلمة لأنفسها يومذاك . أما ما أراده الله لهم ، وبهم ، فكان أمراً آخر ، لقد أراد الله — وله الفضل والمنة — أن تكون ملحمة لا غنيمة ؛ وأن تكون موقعة بين الحق والباطل ، ليحق الحق ويثبته ، ويبطل الباطل ويزهقه . وأراد أن يقطع دابر الكافرين ، فيقتل منهم من يقتل ، ويؤسر منهم من يؤسر ، وتذل كبرياؤهم ، وتخضد شوكتهم ، وتعلو راية الإسلام وتعلو معها كلمة الله ، ويمكن الله للعصبة المسلمة التى تعيش بمنهج الله ، وتنطلق به لتقرير ألوهية الله فى الأرض ، وتحطيم طاغوت الطواغيت . وأراد أن يكون هذا التمكين عن استحقاق لا عن جزاف — تعالى الله عن الجزاف — وبالجهد والجهاد وبتكاليف الجهاد ومعاناتها فى عالم الواقع وفى ميدان القتال .

---

(١) أخرجه الشيخان .

نعم . أراد الله للعصبة المسلمة أن تصبح أمة ؛ وأن تصبح دولة وأن يصبح لها قوة وسلطان .. وأراد لها أن تقيس قوتها الحقيقية إلى قوة أعدائها . فترجح ببعض قوتها على قوة أعدائها ! وأن تعلم أن النصر ليس بالعدد وليس بالعدة ، وليس بالمال والخيل والزاد .. إنما هو بمقدار اتصال القلوب بقوة الله التي لا تقف لها قوة العباد . وأن يكون هذا كله عن تجربة واقعية ، لا عن مجرد تصور واعتقاد قلبي . ذلك لتتزود العصبة المسلمة من هذه التجربة الواقعية لمستقبلها كله ؛ ولتوقن كل عصبة مسلمة أنها تملك فى كل زمان وفى كل مكان أن تغلب خصومها وأعداءها مهما تكن هى من القلة ويكن عدوها من الكثرة ؛ ومهما تكن هى من ضعف العدة المادية ويكن عدوها من الاستعداد والعتاد .. وما كانت هذه الحقيقة لتستقر فى القلوب كما استقرت بالمعركة الفاصلة بين قوة الإيمان وقوة الطغيان

وينظر الناظر اليوم ، وبعد اليوم ، ليرى الآماد المتطاولة بين ما أرادته العصبة المسلمة لنفسها يومذاك وما أراده الله لها . بين ما حسبته خيراً لها وما قدره الله لها من الخير .. ينظر فيرى الآماد المتطاولة ؛ ويعلم كم يخطىء الناس حين يحسبون أنهم قادرون على أن يختاروا لأنفسهم خيراً مما يختاره الله لهم ؛ وحين يتضررون مما

يريده الله لهم مما قد يعرضهم لبعض الخطر أو يصيبهم بشيء من الأذى . بينما يكمن وراءه الخير الذى لا يخطر لهم ببال ،ولاخيال

فأين ما أرادته العصبة المسلمة لنفسها مما أراده الله لها ؟ لقد كانت تمضى — لو كانت لهم غير ذات الشوكة — قصة غنيمة . قصة قوم أغاروا على قافلة فغنموها ! فأما بدر فقد مضت فى التاريخ كله قصة عقيدة . قصة نصر حاسم وفرقان بين الحق والباطل. قصة انتصار الحق على أعدائه المدججين بالسلاح المزودين بكل زاد ؛ والحق فى قلة من العدد ، وضعف فى الزاد والراحلة . قصة انتصار القلوب حين تتصل بالله ، وحين تتخلص من ضعفها الذاتى . بل قصة انتصار حفنة من القلوب من بينها الكارهون للقتال ! ولكنها ببقيتها الثابتة المستعلية على الواقع المادى ، وبيقينها فى حقيقة القوى وصحة موازينها ، قد انتصرت على نفسها ، وانتصرت على من فيها ، وخاضت المعركة والكفة راجحة رجحانا ظاهراً فى جانب الباطل ؛ فقلبت بيقينها ميزان الظاهر ؛ فإذا الحق راجح غالب .

ألا إن غزوة بدر — بملابساتها هذه — لتمضى مثلا فى التاريخ البشرى . ألا وإنها لتقرر دستور النصر والهزيمة ؛ وتكشف عن أسباب النصر وأسباب الهزيمة .. الأسباب الحقيقية لا الأسباب

الظاهرة المادية .. ألا وإنها لكتاب مفتوح تقرؤه الأجيال فى كل زمان وفى كل مكان ، لا تتبدل دلالتها ولا تتغير طبيعتها . فهى آية من آيات الله ، وسنة من سننه الجارية فى خلقه ، ما دامت السماوات والأرض .. ألا وإن العصبة المسلمة التى تجاهد اليوم لإعادة النشأة الإسلامية فى الأرض — بعد ما غلبت عليها الجاهلية — لجديرة بأن تقف طويلا أمام (بدر) وقيمها الحاسمة التى تقررها ؛ والأبعاد الهائلة التى تكشفها بين ما يريده الناس لأنفسهم وما يريده الله لهم .

إن العصبة المسلمة التى تحاول اليوم إعادة نشأة هذا الدين فى دنيا الناس وفى عالم الواقع ، قد لا تكون اليوم من الناحية الحركية فى المرحلة التى كانت فيها العصبة المسلمة الأولى يوم بدر . ولكن الموازين والقيم والتوجيهات العامة لبدر وملابساتها ونتائجها والتعقيبات القرآنية عليها ماتزال تواجه وتوجه موقف العصبة المسلمة فى كل مرحلة من مراحل الحركة ، ذلك أنها موازين وقيم وتوجيهات كلية ودائمة مادامت السماوات والأرض ، وما كانت عصبة مسلمة فى هذه الأرض ، تجاهد فى وجه الجاهلية لإعادة النشأة الإسلامية..

**٢ — يوم الفرقان :**

لقد كانت غزوة بدر — التى بدأت وانتهت بتدبير الله وتوجيهه

وقيادته ومدده — فرقاناً .. فرقاناً بين الحق والباطل — كما يقول المفسرون إجمالا — وفرقاناً بمعنى أشمل وأوسع وأدق وأعمق كثيراً

١ — **كانت فرقاناً بين الحق والباطل فعلا** .. ولكنه الحق الأصيل الذى قامت عليه السماوات والأرض ، وقامت عليه فطرة الأشياء والأحياء .. الحق الذى يتمثل فى تفرد الله — سبحانه — بالألوهية والسلطان والتدبير والتقدير ؛ وفى عبودية الكون كله : سمائه وأرضه ، أشيائه وأحيائه ، لهذه الألوهية المتفردة ولهذا السلطان المتوحد ، ولهذا التدبير وهذا التقدير بلا معقب ولا شريك..والباطل الزائف الطارىء الذى كان يعم وجه الأرض إذ ذاك ؛ ويغشى على ذلك الحق الأصيل ؛ ويقيم فى الأرض طواغيت تتصرف فى حياة عباد الله بما تشاء ، وأهواء تصرف أمر الحياة والأحياء ! .. فهذا هو الفرقان الكبير الذى تم يوم بدر ؛ حيث فرق بين ذلك الحق الكبير وهذا الباطل الطاغى ؛ وزيل بينهما فلم يعودا يلتبسان !

٢ — **لقد كانت فرقاناً بين الحق والباطل بهذا المدلول الشامل الواسع الدقيق العميق ، على أبعاد وآماد :** كانت فرقاناً بين هذا الحق وهذا الباطل فى أعماق الضمير .. فرقاناً بين الوحدانية المجردة المطلقة بكل شعبها فى الضمير والشعور ، وفى الخلق والسلوك، وفى

العبادة والعبودية ؛ وبين الشرك فى كل صوره التى تشمل عبودية الضمير لغير الله من الأشخاص والأهواء والقيم والأوضاع والتقاليد والعادات ...

وكانت فرقاناً بين هذا الحق وهذا الباطل فى الواقع الظاهر كذلك .. فرقاناً بين العبودية الواقعية للأشخاص والأهواء ، وللقيم والأوضاع ، وللشرائع والقوانين ، وللتقاليد والعادات ... وبين الرجوع فى هذا كله لله الواحد الذى لا إله غيره ، ولا متسلط سواه ولا حاكم من دونه ، ولا مشرع إلا إياه ... فارتفعت الهامات لا تنحنى لغير الله ؛ وتساوت الرؤوس لا تخضع إلا لحاكميته وشرعه وتحررت القطعان البشرية التى كانت مستعبدة للطغاة ..

**٣ — وكانت فرقاناً بين عهدين فى تاريخ الحركة الإسلامية :**
عهد الصبر والمصابرة والتجمع والانتظار . وعهد القوة والحركة والمبادأة والاندفاع .. والإسلام بوصفه تصوراً جديداً للحياة ، ومنهجاً جديداً للوجود الإنسانى ، ونظاماً جديداً للمجتمع ، وشكلا جديداً للدولة .. بوصفه إعلاناً عاماً لتحرير «الإنسان» فى «الأرض» بتقرير ألوهية الله وحده وحاكميته ، ومطاردة الطواغيت التى تغتصب ألوهيته وحاكميته .. الإسلام بوصفه هذا لم يكن له بد من

القوة والحركة والمبادأة والاندفاع ، لأنه لم يكن يملك أن يقف كامناً منتظراً على طول الأمد . لم يكن يستطيع أن يظل عقيدة مجردة فى نفوس أصحابه ، تتمثل فى شعائر تعبدية لله ، وفى أخلاق سلوكية فيما بينهم . ولم يكن له بد أن يندفع إلى تحقيق التصور الجديد، والمنهج الجديد ، والدولة الجديدة ، والمجتمع الجديد ، فى واقع الحياة ؛ وأن يزيل من طريقها العوائق المادية التى تكبتها وتحول بينها وبين التطبيق الواقعى فى حياة المسلمين أولا ؛ ثم فى حياة البشرية كلها أخيراً .. وهى لهذا التطبيق الواقعى جاءت من عند الله .. (١)

**٤ — وكانت فرقاناً بين عهدين فى تاريخ البشرية ..** فالبشرية بمجموعها قبل قيام النظام الإسلامى هى غير البشرية بمجموعها بعد قيام هذا النظام .. هذا التصور الجديد الذى انبثق منه هذا النظام . وهذا النظام الجديد الذى انبثق من هذا التصور . وهذا المجتمع الوليد الذى يمثل ميلادا جديداً للإنسان . وهذه القيم التى تقوم عليها الحياة كلها ويقوم عليها النظام الاجتماعى والتشريع القانونى سواء .. هذا كله لم يعد ملكاً للمسلمين وحدهم منذ غزوة بدر وتوكيد وجود

(١) أنظر مفهوم الجهاد فى الاسلام ص ...... من الكتاب

المجتمع الجديد . إنما صار — شيئاً فشيئاً — ملكاً للبشرية كلها : تأثرت به سواء فى دار الإسلام أم فى خارجها ، سواء بصداقة الإسلام أم بعداوته ! .. والصليبيون الذين زحفوا من الغرب ، ليحاربوا الإسلام ويقضوا عليه فى ربوعه ، قد تأثروا بتقاليد هذا المجتمع الإسلامى الذى جاءوا ليحطموها وعادوا إلى بلادهم ليحطموا النظام الإقطاعى الذى كان سائداً عندهم ، بعد ما شاهدوا بقايا النظام الاجتماعى الإسلامى ! والتتار الذين زحفوا من الشرق ليحاربوا الإسلام ويقضوا عليه — بإيحاء من اليهود والصليبيين من أهل دار الإسلام ! — قد تأثروا بالعقيدة الإسلامية فى النهاية ؛ وحملوها لينشروها فى رقعة من الأرض جديدة ؛ وليقيموا عليها خلافة ظلت من القرن الخامس عشر إلى القرن العشرين فى قلب أوربا ! ..وعلى أية حال فالتاريخ البشرى كله — منذ وقعة بدر — متأثر بهذا الفرقان فى أرض الإسلام ، أو فى الأرض التى تناهض الإسلام على السواء .

**٥ — وكانت فرقاناً بين تصورين لعوامل النصر وعوامل الهزيمة** : فجرت وكل عوامل النصر الظاهرية فى صف المشركين ؛ وكل عوامل الهزيمة الظاهرية فى صف العصبة المؤمنة ، حتى لقال المنافقون والذين فى قلوبهم مرض : **«غر هؤلاء دينهم»** . . وقدأراد

الله أن تجرى المعركة على هذا النحو — وهى المعركة الأولى بين الكثرة المشركة والقلة المؤمنة — لتكون فرقاناً بين تصورين وتقديرين لأسباب النصر وأسباب الهزيمة ، ولتنتصر العقيدة القوية على الكثرة العددية وعلى الزاد والعتاد ؛ فيتبين للناس أن النصر للعقيدة الصالحة القوية ، لا لمجرد السلاح والعتاد ؛ وأن أصحاب العقيدة الحقة عليهم أن يجاهدوا ويخوضوا غمار المعركة مع الباطل غير منتظرين حتى تتساوى القوى المادية الظاهرية ، لأنهم يملكون قوة أخرى ترجح الكفة ؛ وأن هذا ليس كلاماً يقال ، إنما هو واقع متحقق للعيان .

**٦ — وأخيراً فلقد كانت بدر فرقاناً بين الحق والباطل بمدلول آخر** : ذلك المدلول الذى يوحى به قول الله تعالى :

**«وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون» .**

لقد كان الذين خرجوا للمعركة من المسلمين ، إنما خرجوا يريدون عير أبى سفيان واغتنام القافلة . فأراد الله لهم غير ما أرادوا أراد لهم أن تفلت منهم قافلة أبى سفيان (**غير ذات الشوكة**) ، وأن يلاقوا نفير أبى جهل (**ذات الشوكة**) وأن تكون معركة وقتال وقتل

وأسر ؛ ولا تكون قافلة وغنيمة ورحلة مريحة ! وقال لهم الله — سبحانه — إنه صنع هذا :

«**ليحق الحق ويبطل الباطل**» ..

وكانت هذه إشارة لتقرير حقيقة كبيرة .. إن الحق لا يحق ، وإن الباطل لا يبطل — فى المجتمع الإنسانى — بمجرد البيان «النظرى» للحق والباطل . ولا بمجرد الاعتقاد «النظرى» بأن هذا حق وهذا باطل .. إن الحق لا يحق ولا يوجد فى واقع الناس ؛ وإن الباطل لا يبطل ولا يذهب من دنيا الناس . إلا بأن يتحطم سلطان الباطل ويعلو سلطان الحق ، وذلك لا يتم إلا بأن يغلب جند الحق ويظهروا ، ويهزم جند الباطل ويندحروا .. فهذا الدين منهج حركى واقعى ، لا مجرد «نظرية» للمعرفة والجدل ! أو لمجرد الاعتقاد السلبى !

ولقد حق الحق وبطل الباطل بالموقعة ؛ وكان هذا النصر العملى فرقاناً واقعياً بين الحق والباطل بهذا الاعتبار الذى أشار إليه قول الله تعالى فى معرض بيان إرادته — سبحانه — من وراء المعركة ؛ ومن وراء إخراج الرسول — صلى الله عليه وسلم — من بيته بالحق ؛ ومن وراء إفلات القافلة (**غير ذات الشوكة**) ولقاء الفئة ذات الشوكة ..

ولقد كان هذا كله فرقاناً فى منهج هذا الدين ذاته ، تتضح به

طبيعة هذا المنهج وحقيقته فى حس المسلمين أنفسهم .. وإنه لفرقان ندرك اليوم ضرورته ؛ حينما ننظر إلى ما أصاب مفهومات هذا الدين من تميع فى نفوس من يسمون أنفسهم مسلمين ! حتى ليصل هذا التميع إلى مفهومات بعض من يقومون بدعوة الناس إلى هذا الدين !

وهكذا كان يوم بدر **«يوم الفرقان يوم التقى الجمعان»** بهذه المدلولات المنوعة الشاملة العميقة ..

ثانيا : وقائع

# غزوة بدر

١ - أحداث الغزوة .

٢ - بدر فى ظلال القرآن .

٣ - نعم الله فى بدر .

٤ - أسرى بدر .

٥ - الغنـــائم :

### ١ — أحداث الغزوة :

أما أحداث هذه الغزوة الكبرى فنجملها لنتنسم الجو الذى نزلت فيه السورة (١) ؛ وندرك مرامى النصوص فيها ؛ وواقعيتها فى مواجهة الأحداث من ناحية ؛ وتوجيهها للأحداث من الناحية الأخرى .. ذلك أن النصوص القرآنية لا تدرك حق إدراكها بالتعامل مع مدلولاتها البيانية واللغوية فحسب ! ! إنما تدرك أولا وقبل كل شىء بالحياة فى جوها التاريخى الحركى ؛ وفى واقعيتها الإيجابية ؛ وتعاملها مع الواقع الحى . وهى — وإن كانت أبعد مدى وأبقى أثراً من الواقع التاريخى الذى جاءت تواجهه — لا تتكشف عن هذا المدى البعيد إلا فى ضوء الواقع التاريخى .. ثم يبقى لها إيحاؤها الدائم وفاعليتها المستمرة ، ولكن بالنسبة للذين يتحركون بهذا الدين وحدهم ويزاولون منه شبه ما كان يزاوله الذين تنزلت هذه النصوص عليهم أول مرة ؛ ويواجهون من الظروف والأحوال شبه ما كان هؤلاء يواجهون ! ولن تتكشف أسرار هذا القرآن قط للقاعدين ، الذين يعالجون نصوصه فى ضوء مدلولاتها اللغوية والبيانية فحسب .. وهم قاعدون ! ..

---

(١) سورة الأنفال .

**أسباب الغزوة :**

قال ابن إسحاق (١) : ثم إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سمع بأبى سفيان بن حرب مقبلا من الشام فى عير لقريش عظيمة . فيها أموال لقريش ، وتجارة من تجاراتهم . وفيها ثلاثون رجلا من قريش أو أربعون ..

قال ابن إسحاق : فحدثنى محمد بن مسلم الزهرى ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، وعبد الله بن أبى بكر ، ويزيد بن رومان ، عن عروة بن الزبير . وغيرهم من علمائنا ، عن ابن عباس رضى الله عنهما .. كل قد حدثنى بعض الحديث ، فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر ، قالوا :

لما سمع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بأبى سفيان مقبلا من الشام ندب المسلمين إليهم ، وقال : «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها» فانتدب الناس ، فخف بعضهم وثقل بعضهم ، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله — صلى الله عليه

---

(١) واعتمد ابن كثير على ابن إسحاق فى روايته للغزوة فى كتابه : «البداية والنهاية» ولم يفترق المقريزى فى «إمتاع الأسماع» عن هذه الرواية فى كثير . وكذلك رواها باختصار الإمام ابن قيم الجوزية فى «زاد المعاد» والإمام ابن حزم فى «جوامع السيرة» وقد استقينا من جميعها .

وسلم —يلقى حرباً وفى (زادالمعاد)، و(إمتاع الأسماع)أنه صلى الله عليه وسلم أمر من كان ظهره — أى ما يركبه — حاضراً بالنهوض . ولم يحتفل لها احتفالا كبيراً .. وقال ابن القيم : «وجملة من حضر بدراً من المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا : من المهاجرين ستة وثمانون ومن الأوس واحد وستون . ومن الخزرج مائة وسبعون . وإنما قل عدد الأوس عن الخزرج ، وإن كانوا أشد منهم وأقوى شوكة وأصبر عند اللقاء ، لأن منازلهم كانت فى عوالى المدينة ، وجاءالنفير بغتة ، وقال النبى — صلى الله عليه وسلم — لا يتبعنا إلا من كان ظهره حاضراً . فاستأذنه رجال ظهورهم كانت فى علو المدينة أن يستأنى بهم حتى يذهبوا إلى ظهورهم ، فأبى . ولم يكن عزمهم على اللقاء ، ولا أعدوا له عدة ، ولا تأهبوا له أهبة . ولكن جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد» .

**خروج قريش للحرب :**

وكان أبو سفيان — حين دنا من الحجاز — يتحسس الأخبار ، ويسأل من لقى من الركبان ، تخوفاً على أمر الناس (أى على أموالهم التى معه فى القافلة( حتى أصاب خبراً من بعض الركبان : أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك . فحذر عند ذلك . فاستأجر ضمضم ابن عمرو الغفارى ، فبعثه إلى مكة ، وأمره أن يأتى قريشاً فيستنفرهم

إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لنا فى أصحابه . فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة .

قال المقريزى فى «إمتاع الأسماع» : فلم يرع أهل مكة إلا وضمضم يقول : يا معشر قريش ، يا آل لؤى ابن غالب ، اللطيمة (وهى العير التى تحمل الطيب والمسك والثياب وليس فيما تحمله طعام يؤكل) قد عرض لها محمد فى أصحابه . الغوث الغوث . والله ما أرى أن تدركوها ! وقد جدع أذنى بعيره ، وشق قميصه وحول رحله . فلم تملك قريش من أمرها شيئاً حتى نفروا على الصعب ، والذلول ، وتجهزوا فى ثلاثة أيام . وقيل فى يومين . وأعان قويهم ضعيفهم . وقام سهيل بن عمرو ، وزمعة بن الأسود ، وطعيمة بن عدى ، وحنظلة بن أبى سفيان ، وعمرو بن أبى سفيان ، يحضون الناس على الخروج . فقال سهيل : يا آل غالب ، أتاركون أنتم محمداً والصباة (أى المرتدين ، يقصد المسلمين !) من أهل يثرب يأخذون عيراتكم وأموالكم ؟ من أراد مالا فهذا مال ، ومن أراد قوة فهذه قوة . فمدحه أمية بن أبى الصلت بأبيات ! ومشى نوفل بن معاوية الديلى إلى أهل الثـروة من قريش فكلمهم فى بذل النفقة والحملان (أى ما يحمل عليه من الدواب ، يقال فيما يكون هبة

خاصة) لمن خرج . فقال عبد الله بن أبى ربيعة : هذه خمسمائة دينار فضعها حيث رأيت . وأخذ من حويطب بن عبد العزى مائتى دينار وثلاث مائة دينار قوى بها فى السلاح والظهر ، وحمل طعيمة بن عدى على عشرين بعيراً ، وقواهم وخلفهم فى أهلهم بمعونة. وكان لا يتخلف أحد من قريش إلا بعث مكانه بعيثاً . ومشوا إلى أبى لهب فأبى أن يخرج أو يبعث أحداً . ويقال : إنه بعث مكانه العاصى ابن هشام بن المغيرة — وكان له عليه دين — فقال : اخرج ،ودينى لك . فخرج عنه ! ... وأخذ عداس (وهو الغلام النصرانى الذى أرسله عتبة وشيبة ابنا ربيعة بقطف من العنب لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خرج إلى الطائف فرده أهله رداً قبيحاً ، وأتبعوه السفهاء والصبية يرمونه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين ، فلجأ منهم إلى بستان عتبة وشيبة . وقد وقع فى نفس عداس ما وقع من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأكب على يديه وقدميه يقبلهما !) يخذل شيبة وعتبة ابنى ربيعة عن الخروج ، والعاص بن منبه بن الحجاج . وأبى أمية بن خلف أن يخرج ، فأتاه عقبة بن أبى معيط وأبو جهل فعنفاه . فقال ابتاعوا لى أفضل بعير فى الوادى ! فابتاعوا له جملا بثلاث مائة درهم من نعم بنى قشير ، فغنمه

المسلمون ! .. وما كان أحد منهم أكره للخروج من الحارث بن عامر . ورأى ضمضم بن عمرو أن وادى مكة يسيل دماً من أسفله وأعلاه . ورأت عاتكة بنت عبد المطلب رؤياها (وفيها نذير لقريش بالقتل والدم فى كل بيت) ... فكره أهل الرأى المسير ، ومشى بعضهم إلى بعض ، فكان من أبطأهم عن ذلك الحارث بن عامر ، وأمية بن خلف ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وحكيم بن حزام ، وأبو البخترى (ابن هشام) وعلى بن أمية بن خلف ، والعاص بن منبه ، حتى بكتهم أبو جهل ، وأعانه عقبة بن أبى معيط ، والنضر بن الحارث بن كلدة ، فاجمعوا المسير .. وخرجت قريش بالقيان والدفاف يغنين فى كل منهل ، وينحرون الجزر ، وهم تسعمائة وخمسون مقاتلا .. وقادوا مائة فرس ، عليها مائة دراع سوى دروع المشاة . وكانت إبلهم سبعمائة بعير . وهم كما ذكر الله تعالى عنهم بقوله **«ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ، ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط»** .. (الأنفال : ٤٧)

وأقبلوا فى تجمل عظيم وحنق زائد على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه ، لما يريدون من أخذ عيرهم ، وقد أصابوا من قبل عمرو بن الحضرمى والعير التى كانت معه (فى سرية عبد الله

ابن جحش) .. وأقبل أبو سفيان بالعير ومعها سبعون رجلا (فى رواية ابن إسحاق ثلاثون رجلا) منهم مخرمة بن نوفل ، وعمرو بن العاص ، فكانت عيرهم ألف بعير تحمل المال . وقد خافوا خوفاً شديداً حين دنوا من المدينة ، واستبطأوا ضمضم بن عمرو والنفير (الذين نفروا من قريش ليمنعوا عيرهم) .. فأصبح أبو سفيان ببدر وقد تقدم العير وهو خائف من الرصد . فضرب وجه عيره ، فساحل بها (أى اتجه إلى ساحل البحر بعيداً عن طريق المدينة( وترك بدراً يساراً ، وانطلق سريعاً .. وأقبلت قريش من مكة ينزلون كل منهل يطعمون الطعام من أتاهم وينحرون الجزر .. وأتاهم قيس بن امرىء القيس من أبى سفيان يأمرهم بالرجوع ، ويخبرهم أن قد نجت عيرهم فلا تجزروا أنفسكم أهل يثرب (يعنى لا تعرضوا أنفسكم لأن يذبحكم أهل يثرب) فلا حاجة لكم فيما وراء ذلك . إنما خرجتم لتمنعوا العير وأموالكم ، وقد نجاها الله ! فعالج قريشاً فأبت الرجوع من (الجحفة) وقال أبو جهل : لا والله لا نرجع حتى نرد بدراً ، فنقيم ثلاثاً ، ننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونشرب الخمر ، وتعزف القيان علينا ؛ فلن تزال العرب تهابنا أبداً .. وعاد قيس إلى أبى سفيان ، فأخبره بمضى قريش . فقال : واقوماه ! هذا عمل عمرو بن هشام

(يعنى أبا جهل) كره أن يرجع لأنه ترأس على الناس فبغى ، والبغى منقصة وشؤم . إن أصاب محمد النفير ذللنا ..

قال ابن إسحاق : وقال الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى ، وكان حليفاً لبنى زهرة ، وهم بالجحفة يا بنى زهرة قد نجى الله لكم أموالكم ، وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل . وإنما نفرتم لتمنعوه وماله فاجعلوا بى جبنها ، وارجعوا ، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا فى غير ضيعة . لا ما يقول هذا (يعنى أبا جهل) فرجعوا ، فلم يشهدها زهرى واحد .. ولم يكن بقى من قريش بطن إلا وقد نفر منهم ناس ، إلا بنى عدى ابن كعب ، لم يخرج منهم رجل واحد (فى إمتاع الأسماع أن طعمة بن عدى حمل على عشرين بعيراً وقواهم وخلفهم فى أهلهم بمعونة) .. وكان بين طالب بن أبى طالب — وكان فى القوم — وبين بعض قريش محاورة . فقالوا : والله لقد عرفنا يا بنى هاشم ، وإن خرجتم معنا ، إن هواكم لمع محمد. فرجع طالب إلى مكة مع من رجع ! .

**خروج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بدر :**

قال ابن إسحاق : وخرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى ليال مضت من شهر رمضان فى أصحابه .

وكانت إبل أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يومئذ

سبعين بعيراً فاعتقبوها (أى كانوا يركبونها بالتعاقب) فكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وعلى بن أبى طالب ، ومرثد بن أبى مرثد الغنوى يعتقبون بعيراً . وكان حمزة بن عبد المطلب ، وزيد ابن حارثة ، وأبو كبشة وأنس موليا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يعتقبون بعيراً . وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيراً ..

**الرسول صلى الله عليه وسلم يستشير أصحابه :**

قال المقريزى فى إمتاع الأسماع :

ومضى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى إذا كان دون بدر أتاه الخبر بمسير قريش . فاستشار الناس ، فقام أبو بكر — رضى الله عنه — فقال فأحسن . ثم قام عمر فقال فأحسن . ثم قال : يا رسول الله ، إنها والله قريش وعزها ، والله ما ذلت منذ عزت ، والله ما آمنت منذ كفرت ، والله لا تسلم عزها أبداً ، ولتقاتلنك ، فأتهب لذلك أهبته ، وأعد لذلك عدته . ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ، امض لأمر الله ، فنحن معك ، والله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها : «**اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون**» .. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكما مقاتلون والذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا» (وبرك الغماد

موضع بأقصى اليمن) فقال له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خيراً ودعا له بخير .. ثم قال : «أشيروا على أيها الناس» . وإنما يريد الأنصار .. وكان يظنهم لا ينصرونه إلا فى الدار ، لأنهم شرطوا له أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأولادهم (وذلك فى بيعة العقبة الثانية التى هاجر على أساسها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى المدينة) فقام سعد بن معاذ — رضى الله عنه — فقال : أنا أجيب عن الأنصار ، كأنك يا رسول الله تريدنا ! قال : «أجل» . قال : إنك عسى أن تكون قد خرجت عن أمر قد أوحى إليك فى غيره (يعنى كما يبدو أنك ربما تكون قد خرجت لأمر ثم أوحى إليك فى غيره إذ كان قد خرج للعير ثم عرض النفير) ، فإنا قد آمنا بك ، وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به حق ، فأعطيناك مواثيقنا وعهودنا على السمع والطاعة . فامض يا نبى الله لما أردت . فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما بقى منا رجل . وصل من شئت ، واقطع من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وما أخذت من أموالنا أحب إلينا مما تركت . والذى نفسى بيده ما سلكت هذا الطريق قط ، وما لى بها من علم ؛ وما نكره أن نلقى عدونا غداً ، وإنا لصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء ،

لعل الله يريك منا بعض ما تقر به عيناك .. وفى رواية أن سعد بن معاذ قال : إنا خلفنا من قومنا قوماً ما نحن بأشد حباً لك منهم ، ولا أطوع لك منهم ؛ ولكن إنما ظنوا أنها العير . نبنى لك عريشاً فتكون فيه ، ونعد عندك رواحلك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببناه ، وإن تكن الأخرى جلست على رواحلك فلحقت من وراءنا .: فقال له النبى — صلى الله عليه وسلم خيراً . وقال : «أو يقضى الله خيراً من ذلك يا سعد» . فلما فرغ سعد من المشورة قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : «سيروا على بركة الله ، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين . والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم» .. فعلم القوم أنهم إنما يلاقون القتال وأن العير تفلت ؛ ورجوا النصر لقول النبى — صلى الله عليه وسلم — ومن يومئذ عقد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الألوية . وهى ثلاثة ، لواء يحمله مصعب بن عمير . ورايتان سوداوان . إحداهما مع على ، والأخرى مع رجل من الأنصار (هو سعد بن معاذ) وأظهر السلاح .. وكان خرج من المدينة على غير لواء معقود .

### ماذا حدث فى ليلة بدر ؟

### ١ — معسكر المسلمين :

... ونزل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أدنى بدر عشاء ليلة الجمعة لسبع عشر مضت من رمضان ، فبعث علياً والزبير وسعد

ابن أبي وقاص وبسبس بن عمرو رضي الله عنهم يتحسسون على الماء . وأشار لهم إلى ظريب (تصغير ظرب وهو الجبل الصغير المنبسط في حجارة دقاق) وقال : أرجو أن تجدوا الخبر عند هذا القليب الذي يلي الظرب . فوجدوا على تلك القليب روايا قريش فيها سقاؤهم (الروايا من الإبل حوامل الماء وسقاء جمع سقاء) فأفلت عامتهم — وفيهم عجير — فجاء قريشا ، فقال : يا آل غالب هذا ابن أبي كبشة (يعني النبي صلى الله عليه وسلم) وأصحابه قدأخذوا سقاءكم . فماج العسكر وكرهوا ذلك ، والسماء تمطر عليهم . وأخذ تلك الليلة أبو يسار غلام عبيدة بن سعيد بن العاص ، وأسلم غلام منبه بن الحجاج ، وأبو رافع غلام أمية بن خلف ، فأتى بهم النبي — صلى الله عليه وسلم — وهو يصلي . فقالوا : نحن سقاء قريش بعثونا نسقيهم من الماء . فكره القوم خبرهم فضربوهم . فقالوا : نحن لأبي سفيان ، ونحن في العير ! فأمسكوا عنهم ! فسلم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقال : «إن صدقوكم ضربتموهم ، وإن كذبوكم تركتموهم !» ثم أقبل عليهم يسألهم ، فأخبروه أن قريشاً خلف هذا الكثيب ، وأنهم ينحرون يوماً عشراً ويوماً تسعاً ، وأعلموه بمن خرج من مكة . فقال صلى الله عليه وسلم : القوم ما بين الألف

والتسعمائة . وقال : «**هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها**» .

واستشار أصحابه فى المنزل ؛ فقال الحباب بن المنذر بن الجموح انطلق بنا إلى أدنى بئر إلى القوم . فإنى عالم بها وبقلبها . بها قليب(أى بئر قديمة لا يعلم من حفرها) قد عرفت عذوبة مائه ، وماء كثير لا ينزح . ثم نبنى عليها حوضاً ، ونقذف فيه الآنية فنشرب ونقاتل ؛ ونعور ما سواها من القلب . فقال : يا حباب أشرت بالرأى (وفى رواية ابن هشام عن ابن إسحاق أن الحباب بن المنذر قال : يا رسول الله ، هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : «**بل هو الرأى والحرب والمكيدة**» قال : يا رسول الله ، هذا ليس بمنزل .. ثم أشار بما أشار( ونهض رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فنزل على القليب ببدر . وبات تلك الليلة يصلى إلى جذم شجرة (أى ما بقى من جذعها بعد قطع أعلاه) . وكانت ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان . وفعل ما أشار به الحباب .. وبعث الله السماء ، فأصاب المسلمين ما لبد الأرض ولم يمنع من السير . وأصاب قريشاً من ذلك ما لم يقدروا أن يرتحلوا منه . وإنما بينهم قوز من رمل . وكان مجىء المطر نعمة وقوة للمؤمنين ، وبلاء ونقمة على المشركين .. وأصاب

المسلمين تلك الليلة نعاس ألقي عليهم . فناموا ، حتى إن أحدهم تكون ذقنه بين ثدييه وما يشعر حتى يقع على جنبه . واحتلم رفاعة بن رافع ابن مالك حتى اغتسل آخر الليل .. وبعث — صلى الله عليه وسلم — عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود — رضي الله عنهما — فأطافا بالقوم ثم رجعا فأخبراه أن القوم مذعورون ، وأن السماء تسح عليهم .

وبني لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — لما نزل على القليب عريش من جريد . وقام سعد بن معاذ على بابه متوشح السيف . ومشى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على موضع الوقعة ، وعرض على أصحابه مصارع رؤوس الكفر من قريش مصرعاً مصرعاً ، يقول : هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان . فما عدا واحدمنهم مضجعه الذي حد له الرسول . وعدل صلى الله عليه وسلم الصفوف ورجع إلى العريش فدخل — صلى الله عليه وسلم — وأبو بكر رضي الله عنه .

**٢ — معسكر الكفار :**

قال ابن إسحاق : وقد ارتحلت قريش حتى أصبحت فأقبلت فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم — تصوب من العقنقل (وهو الكثيب الذي جاءوا منه) إلى الوادي ، قال : **«اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك ، وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك**

الذى وعدتنى ، اللهم أحنهم الغداة » . وقد قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقد رأى عتبة بن ربيعة فى القوم على جمل له أحمر فقال : «إن يكن فى أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا» .

«وقد كان خفاف بن أيماء بن رحضة الغفارى — أو أبوه أيماء ابن رحضة الغفارى — بعث إلى قريش — حين مروا به — ابناً له بجزائر (أى ذبائح) أهداها لهم . وقال : إن أحببتم أن نمدكم بسلاح ورجال فعلنا . قال : فأرسلوا إليه مع ابنه أن وصلتك رحم . قد قضيت الذى عليك . فلعمرى لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم ، ولئن كنا إنما نقاتل الله ، كما يزعم محمد، فما لأحد بالله من طاقة .

فلما نزل الناس أقبل نفر من قريش حتى وردوا حوض رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيهم حكيم ابن حزام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم — «دعوهم» . فما شرب منه رجل يومئذ إلا قتل . إلا ما كان من حكيم بن حزام فإنه لم يقتل . ثم أسلم بعد ذلك فحسن إسلامه . فكان إذا اجتهد فى يمينه قال : لا والذى نجانى من يوم بدر ! .

قال ابن إسحاق : وحدثنى أبو إسحاق بن يسار وغيره من أهل العلم ، عن أشياخ من الأنصار قالوا : لما اطمأن القوم بعثوا عمير بن وهب الجمحى ، فقالوا : احذر لنا أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) قال : فاستجال بفرسه حول العسكر ! ثم رجع إليهم ، فقال ثلاث مائة رجل ، يزيدون قليلا أو ينقصون . ولكن أمهلونى حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد . قال : فضرب فى الوادى حتى أبعد فلم ير شيئاً ، فرجع إليهم ، فقال : ما وجدت شيئاً ، ولكنى قد رأيت يا معشر قريش ، البلايا تحمل المنايا . نواضح يثرب تحمل الموت الناقع . قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم ، فما خير العيش بعد ذلك ؟ فروا رأيكم !

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى فى الناس ، فأتى عتبة بن ربيعة ، فقال : يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، هل لك إلى ألا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر ؟ قال : وماذاك يا حكيم ؟ قال : ترجع بالناس ، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمى : قال : قد فعلت ، أنت على بذلك ، إنما هو حليفى فعلى عقله (أى دية أخيه الذى قتل فى سرية عبد الله بن جحش كما سبق)

وما أصيب من ماله . فأت ابن الحنظلية فإني لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره . يعني أبا جهل بن هشام . ثم قام عتبة بن ربيعة خطيباً فقال : يا معشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً . والله لئن أصبتموه لايزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته . فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون .

قال حكيم : فانطلقت حتى جئت أبا جهل ، فوجدته قد نثل درعاً له من جرابها فهو يهيئها . فقلت له : يا أبا الحكم ، إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا ، للذي قال ، فقال : انتفخ والله سحره (يعني انتفخت رئته من الخوف !) حين رأى محمداً وأصحابه . كلا ! والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعتبة ما قال ، ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور ، وفيهم ابنه (يعني أبا حذيفة رضي الله عنه وكان مسلماً مع المسلمين) فقد تخوفكم عليه !

ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي ، فقال : هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس . وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقم فانشد خفرتك (أي

عهدك) ومقتل أخيك ! فقام عامر بن الحضرمى فاكتشف ، ثم صرخ : واعمراه ! فحميت الحرب ، وحقب أمر الناس (أى اشتد) واستوسقوا على ما هم عليه من الشر . فأفسد على الناس الرأى الذى دعاهم إليه عتبة . فلما بلغ عتبة قول أبي جهل : انتفخ والله سحره . قال : سيعلم مصفر استه (يريد أن يشبهه فى الجبن كالرجل الذى يتأنث !) من انتفخ سحره ؟ أنا أم هو !

**وبدأت المعركة ...**

قال ابن إسحاق : وقد خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومى ، وكان رجلا شرساً سيء الخلق ، فقال : أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه . فلما خرج خرج إليه حمزة ابن عبد المطلب — رضى الله عنه — فلما التقيا ضربه حمزة فأطن قدمه (أى أطارها) بنصف ساقه . وهو دون الحوض . فوقع على ظهره تشخب رجله دماً نحو أصحابه ؛ ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد — زعم — أن يبر يمينه ، وأتبعه حمزة ، فضربه حتى قتله فى الحوض !

ثم خرج بعده عتبة بن ربيعة ، بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة ، حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة ، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة ؛ وهم عوف ومعوذ ابنا الحارث وأمهما

عفراء ، ورجل آخر يقال : هو عبد الله بن رواحة . فقالوا من أنتم ؟ فقالوا : رهط من الأنصار ، قالوا : ما لنا بكم من حاجة (وقال ابن إسحاق : إن عتبة قال للفتية من الأنصار حين انتسبوا إليه : أكفاء كرام ، إنما نريد قومنا( ثم نادى مناديهم : يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — «قم يا عبيدة بن الحارث ، قم يا حمزة ، قم يا على» . فلما قاموا ودنوا منهم قالوا : من أنتم ؟ قال عبيدة : عبيدة ! وقال حمزة : حمزة ! وقال على : على ! قالوا . نعم أكفاء كرام ! فبارز عبيدة وكان أسن القوم ، عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة ، وبارز على الوليد بن عتبة . فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله ، وأما على فلم يمهل الوليد أن قتله . واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه (أى جرحه جرحاً لا يملك معه الحركة) وكر حمزة وعلى بأسيافهما على عتبة فذففا عليه (أى أجهزا عليه)واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابه .

قال ابن إسحاق : ثم تزاحف الناس ، ودنا بعضهم من بعض وقد أمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أصحابه ألا يحملوا حتى يأمرهم . قال : «إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل» .. ثم

عدل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الصفوف ورجع إلى العريش ، فدخله ومعه فيه أبو بكر ليس معه فيه غيره . ورسول الله صلى الله عليه وسلم — يناشد ربه ما وعده من النصر ، ويقول فيما يقول : اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد» وأبو بكر يقول : يا نبي الله بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك .

وفى إمتاع الأسماع للمقريزى : أن عبد الله بن رواحة قال لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — يا رسول الله إنى أشير عليك — ورسول الله أعظم وأعلم من أن يشار عليه — إن الله أجل وأعظم من أن ينشد وعده ! فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يا ابن رواحة ، ألا أنشد الله وعده ؟ إن الله لا يخلف الميعاد» .

قال ابن إسحاق : وقد خفق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خفقة وهو فى العريش ، ثم انتبه ، فقال : «أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله . هذا جبريل آخذاً بسنان فرس يقوده ، على ثناياه النقع» (يعنى الغبار) .

وقد رمى مهجع مولى عمر بن الخطاب بسهم فقتل ، فكان أول قتيل من المسلمين رحمه الله . ثم رمى حارثة بن سراقة أحد بنى

عدى بن النجار — وهو يشرب من الحوض — بسهم ، فأصاب نحره ، فقتل رحمه الله .

ثم خرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى الناس فحرضهم وقال : **«والذى نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل ، فيقتل، صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة»** . فقال عمير بن الحمام أخو بنى سلمة ، وفى يده تمرات يأكلهن : بخ بخ (كلمة تقال للإعجاب) أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ؟ ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قتل رحمه الله تعالى .

قال ابن إسحاق : وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة ، أن عوف بن الحارث — وهو ابن عفراء — قال : يا رسول الله ، ما يضحك الرب من عبده ؟ قال : «غمسه يده فى العدو حاسراً» فنزع درعاً كانت عليه ، فقذفها ، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل رحمه الله .

**الرسول صلى الله عليه وسلم فى الميدان :**

قال ابن إسحاق : وحدثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ، عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير العذرى ، حليف بنى زهرة ، أنه حدثه ، أنه لما التقى الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، قال أبو جهل ابن هشام اللهم ، أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعرف ، فأحنه الغداة ! فكان هو المستفتح .

قال ابن إسحاق : ثم إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشا ، ثم قال : «**شاهت الوجوه !**» ثم نفحهم بها . وأمر أصحابه فقال : «شدوا» فكانت الهزيمة . فقتل الله تعالى من قتل من صناديد قريش ، وأسر من أسر من أشرافهم .

فلما وضع القوم أيديهم يأسرون ، ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — في العريش ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذى فيه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — متوشحاً السيف ، في نفر من الأنصار يحرسون رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يخافون عليه كرة العدو ؛ ورأى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيما ذكر لى في وجه سعد الكراهية لما يصنع الناس ؛ فقال له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : «والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم!» قال : أجل والله يا رسول الله ؛ كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك . فكان الإثخان في القتل أحب إلى من استبقاء الرجال !

قال ابن إسحاق : وحدثنى العباس بن عبد الله بن معبد ؛ عن بعض أهله ؛ عن ابن عباس رضى الله عنهما . أن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال لأصحابه يومئذ : «إنى قد عرفت أن رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقى منكم

أحداً من بني هاشم فلا يقتله ، ومن لقى أبا البخترى بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله ، ومن لقى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فلا يقتله ، فإنه إنما أخرج مستكرهاً» قال : فقال أبو حذيفة (ابن عتبة بن ربيعة) : أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس ؟! والله لئن لقيته لألحمنه السيف ! قال : فبلغت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال لعمر بن الخطاب : «يا أبا حفص» قال عمر : والله إنه لأول يوم كنانى فيه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بأبى حفص — «أيضرب وجه عم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالسيف ؟» فقال عمر : يا رسول الله دعنى فلأضرب عنقه بالسيف ! فوالله لقد نافق ! فكان أبو حذيفة يقول : ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عنى الشهادة — فقتل يوم اليمامة (فى حروب الردة) شهيداً .

قال ابن هشام : وإنما نهى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن قتل أبى البخترى لأنه كان أكف القوم عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو بمكة ، وكان لا يؤذيه ولا يبلغه عنه شىء يكرهه ، وكان ممن قام فى نقض الصحيفة التى كتبت قريش على

بنى هاشم وبنى المطلب ... (وقد قتل لأنه رفض أن يستأسر) ...

## مصارع رؤس الكفر

### ١ — أمية بن خلف :

قال ابن إسحاق : حدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : كان أمية بن خلف لى صديقا بمكة . وكان اسمى عبدعمرو ، فتسميت حين أسلمت «عبد الرحمن» ونحن بمكة . فكان يلقانى إذ نحن بمكة فيقول : يا عبد عمرو ، أرغبت عن اسم سماكه أبواك ؟ فأقول : نعم ! فيقول : فإنى لا أعرف الرحمن ، فاجعل بينى وبينك شيئاً ادعوك به ، أما أنت فلا تجيبنى باسمك الأول ، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف ! قال فكان إذا دعانى يا عبد عمرو لم أجبه . قال : فقلت له : يا أبا على ، اجعل ما شئت . قال : فأنت عبد الإله . قال : قلت : نعم . قال : فكنت إذا مررت به قال : يا عبد الإله ، فأجيبه ، فأتحدث معه . حتى إذا كان يوم بدر مررت به وهو واقف مع ابنه على ابن أمية آخذ بيده ؛ ومعى أدراع لى قد استلبتها فأنا أحملها . فلما رآنى قال لى : يا عبد عمرو ، فلم أجبه . فقال : يا عبد الإله ، فقلت : نعم ، قال : هل لك فى ؟ فأنا خير لك من هذه الأدراع التى معك ! : قال : قلت : نعم ! ها الله إذن . قال : فطرحت الأدراع من يدى ، وأخذت بيده ويد ابنه (يعنى أسيرين) وهو يقول : ما رأيت كاليوم قط ! أمالكم

حاجة فى اللبن ؟ (يعنى أن من أسرنى افتديت منه بإبل كثيرة اللبن ! ثم خرجت أمشى بهما .

قال ابن إسحاق : حدثنى عبد الواحد بن أبى عون ، عن سعيد بن إبراهيم ، عن أبيه ، عن عبد الرحمن بن عوف — رضى الله عنه — قال : قال لى أمية بن خلف ، وأنا بينه وبين ابنه ، آخذ بأيديهما : يا عبد الإله ، من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة فى صدره ؟ قال . قلت : حمزة بن عبد المطلب . قال : ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل .. قال عبد الرحمن : فوالله إنى لأقودهما إذ رآه بلال معى ، وكان هو الذى يعذب بلالا بمكة على ترك الإسلام ، فيخرجه إلى رمضاء مكة إذا حميت ، فيضجعه على ظهره ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول : لاتزال هكذا أو تفارق دين محمد، فيقول بلال : أحد . أحد . قال : فلما رآه قال : رأس الكفر أمية ابن خلف لانجوت إن نجا ! قال : أى بلال ، أبأسيرى ؟ قال : لانجوت إن نجا ! قال : قلت : أتسمع يا ابن السوداء ؟ قال : لانجوت إن نجا ! قال : ثم صرخ بأعلى صوته : يا أنصار الله ، رأس الكفر أمية ابن خلف ، لانجوت إن نجا ! قالوا : فأحاطوا بنا حتى جعلونا فى مثل المسكة (أى السوار من عاج) وأنا أذب عنه

قال : فأخلف رجل السيف فضرب رجل ابنه فوقع ، وصاح أمية صيحة ما سمعت بمثلها قط . قال : فقلت : انج بنفسك ولا نجاء بك. فوالله ما أغني عنك شيئاً . قال : فهبروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما .. فكان عبد الرحمن يقول : يرحم الله بلالا ، ذهبت أدراعي وفجعني بأسيري ! .

## ٢ — أبو جهل

قال ابن إسحاق : فلما فرغ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من عدوه أمر بأبي جهل بن هشام أن يلتمس في القتلى ، وكان أول من لقي أبا جهل — كما حدثني ثور بن زيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، وعبد الله بن أبي بكر أيضاً ، قد حدثني ذلك — قالا : قال معاذ بن عمرو بن الجموح أخو بني سلمة : سمعت القوم وأبو جهل في مثل الحرجة (أي الشجر الملتف) وهم يقولون : أبو الحكم لا يخلص إليه ، قال : فلما سمعتها جعلته من شأني ، فصمدت نحوه فلما أمكنني حملت عليه ، فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه فوالله ما شبهتها — حين طاحت — إلا بالنواة تطيح من تحت مرضخة النوى حين يضرب بها ، قال : وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي . فتعلقت بجلدة من جنبي ، وأجهضني القتال عنه ، فلقد قاتلت عامة يومي ، وإني لأسحبها خلفي ، فلما آذتني وضعت

عليها قدمى ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها .

ثم مر بأبى جهل ، وهو عقير ، معوذ ابن عفراء ، فضربه حتى أثبته فتركه وبه رمق ، وقاتل معوذ حتى قتل ، فمر عبد الله بن مسعود بأبى جهل — حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلتمس فى القتلى — وقد قال لهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيما بلغنى : «انظروا إن خفى عليكم فى القتلى إلى أثر جرح فى ركبته ، فإنى ازدحمت يوماً أنا وهو على مأدبة لعبد الله بن جدعان ، ونحن غلامان ، وكنت أشف منه بيسير ، فدفعته ، فوقع على ركبتيه ، فجحش فى إحداهما جحشاً لم يزل أثره به» قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه . فوجدته بآخر رمق ، فعرفته فوضعت رجلى على عنقه ، قال وقد كان خبث بى مرة بمكة فآذانى ولكزنى (أى قبض على ولزمنى) ثم قلت له : هل أخزاك الله يا عدو الله ؟ قال : وبماذا أخزانى ؟ أأعمد من رجل قتلتموه (يريد أكبر من رجل قتلتموه ؟) أخبرنى لمن الدائرة اليوم ؟ قال : قلت لله ورسوله .

قال ابن إسحاق : وزعم رجال من بنى مخزوم أن ابن مسعود كان يقول : قال لى : لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعى الغنم . قال : ثم احتززت رأسه ، ثم جئت به رسول الله — صلى الله عليه

وسلم — فقلت : يا رسول الله ، هـذا رأس عدو الله أبي جهـل. قال فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : «الله الذى لا إله غـيره» ثم ألقيت رأسه بين يدى رسول الله — صلى الله عليـه وسلم — فحمد الله .

قال ابن هشام : وحدثنى أبو عبيدةوغيرهمن أهل العلمبالمغازى ، أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لسعيد بن العاص — ومر به — إنى أراك كأن فى نفسك شيئاً . أراك تظن أنى قتلت أباك ! إنى لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله ؛ ولكنى قتلت خالى العاص بن هشام ابن المغيرة . فأما أبوك فإنى مررت به ، وهو يبحث بحث الثور (أى بقرنه) فحدت عنه . وقصد له ابن عمه على فقتله ! .

**أصحاب القليب :**

قال ابن إسحاق : وحدثنى يزيد بن رومان ، عن عروة بنالزبير عن عائشة رضى الله عنها . قالت : لما أمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالقتلى أن يطرحوا فى القليب طرحوا فيه ، إلا ما كان من أمية بن خلف . فإنه انتفخ فى درعه فملأها ، فذهبوا ليحركوه فتزايل لحمه ، فأقروه وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة ، فلما ألقاهم فى القليب ، وقف عليهم رسول الله — صلى الله عليهوسلم فقال : «**يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإنى قد**

**وجدت ما وعدني ربي حقاً»** قالت : فقال له أصحابه : يا رسول الله أتكلم قوماً موتى ؟ فقال لهم : «لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق» قالت عائشة : والناس يقولون «لقد سمعوا ما قلت لهم» وإنما قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لقد علموا» .

**قال ابن إسحاق :** ولما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم أن يلقوا في القليب ، أخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم — فيما بلغني — في وجه أبي حذيفة بن عتبة ، فإذا هو كئيب قد تغير . فقال : «يا أبا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء» أو كما قال — صلى الله عليه وسلم — فقال : لا والله يا رسول الله ، ما شككت في أبي ولا في مصرعه ، ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلا ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه ، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له ، أحزنني ذلك . فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير ، وقال له خيراً .

**حال المسلمين عند الغنائم :**

ثم إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أمر بما في العسكر مما جمع الناس فجمع ، فاختلف المسلمون فيه . فقال من جمعه : هو لنا . وقال الذين كانوا يقاتلون العدو ويطلبونه : والله لولا نحن

ما أصبتموه ، لنحن شغلنا عنكم القوم حتى أصبتم ما أصبتم . وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مخافة أن يخالف إليه العدو : والله ما أنتم بأحق به منا ، لقد رأينا المتاع حين لم يكن دونه ما يمنعه ، ولكنا خفنا على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كرة العدو ، فقمنا دونه ، فما أنتم بأحق به منا .

**قال ابن إسحاق** :وحدثني عبد الرحمن بن الحارث وغيره من أصحابنا عن سليمان بن موسى ، عن مكحول ، عن أبي أمامة الباهلي ، قال سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال.فقال فينا—أصحاب بدر— نزلت حين اختلفنا فى النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا ، فجعله إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقسمه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بين المسلمين عن بواء ، يقول : على السواء .

**حال الأسرى :**

**قال ابن إسحاق** :وحدثني نبيه بن وهب أخو بني عبد الدار أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حين أقبل بالأسارى ، فرقهم فى أصحابه ، وقال : استوصوا بالأسارى خيراً» . فكان أبو عزيز بن عمير بن هاشم ، أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه ، فى الأسارى . قال : فقال أبو عزيز : مربي أخي مصعب بن عمير ، ورجل من

الأنصار يأسرني . فقال : شد يدك به ، فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك . قال : وكنت في رهط من الأنصار — حين أقبلوا بي من بدر — فكانوا إذا قدموا غداءهم أو عشاءهم خصوني بالخبز ، وأكلوا التمر ، لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم بنا ، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها . قال : فأستحي فأردها على أحدهم ، فيردها على ما يمسها .

قال ابن هشام : وكان أبو عزيز صاحب لواء المشركين ببدر ، بعد النضر بن الحارث ، فلما قال أخوه مصعب ابن عمير لأبي اليسر وهو الذي أسره — ما قال ، قال له أبو عزيز : يا أخي ، هذه وصاتك بي ؟ فقال له مصعب : إنه أخي دونك .. فسألت أمه عن أغلى ما فدى به قرشي ، فقيل لها : أربعة آلاف درهم ، فبعثت بأربعة آلاف درهم ، ففدته بها .

قال ابن إسحاق : ثم بعثت قريش في فداء الأسرى .

**٢ — بدر في ظلال القرآن :**

في هذه الغزوة التي أجملنا عرضها بقدر المستطاع ، نزلت سورة الأنفال .. نزلت تعرض وقائع الغزوة الظاهرة ، وتعرض وراءها فعل القدرة المدبرة ، وتكشف عن قدر الله وتدبيره في

وقائع الغزوة ، وفيما وراءها من خط سير التاريخ البشرى كله ؛ وتحدث عن هذا كله بلغة القرآن الفريدة وبأسلوب القرآن المعجز ..

فأما الآن فنكتفى باستعراض الخطوط الأساسية فى السورة :

إن هنالك حادثاً بعينه فى الغزوة يلقى ضوءاً على خط سيرها . ذلك هو ما رواه ابن إسحاق — عن عبادة ابن الصامت — رضى الله عنه ؛ قال :

«فينا — أصحاب بدر — نزلت حين اختلفنا فى النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا ، فجعله إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم — عن بواء (يقول على السواء) . هذا الحادث يلقى ضوءاً على افتتاح السورة وعلى خط سيرها كذلك :

لقد اختلفوا على الغنائم القليلة فى الوقعة التى جعلها الله فرقاناً فى مجرى التاريخ البشرى إلى يوم القيامة !

ولقد أراد الله — سبحانه — أن يعلمهم ، وأن يعلم البشر كلهم من بعدهم أموراً عظاماً ...

أراد أن يعلمهم ابتداء أن أمر هذه الوقعة أكبر كثيراً من أمر

الغنائم التي يختلفون عليها . فسمى يومها : «**يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان**» ..

وأراد أن يعلمهم أن هذا الأمر العظيم إنما تم بتدبير الله وقدره ، في كل خطوة وفي كل حركة ، ليقضي من ورائه أمراً أراده ، فلم يكن لهم في هذا النصر وما وراءه من عظائم الأمور يد ولا تدبير ، وسواء غنائمه الصغيرة وآثاره الكبيرة . فكلها من فعل الله وتدبيره . إنما أبلاهم فيه بلاء حسناً من فضله !

وأراد أن يريهم مدى الفرق بين ما أرادوه هم لأنفسهم من الظفر بالعير ، وما أراده الله لهم ، وللبشرية كلها من ورائهم من إفلات العير ، ولقاء النفير . ليروا على مد البصر مدى ما بين إرادتهم بأنفسهم وإرادة الله بهم ولهم من فرق كبير !

لقد بدأت السورة بتسجيل سؤالهم عن الأنفال وبيان حكم الله فيها وردها إلى الله والرسول ودعوتهم إلى تقوى الله ، وإصلاح ذات بينهم — بعدما ساءت أخلاقهم في النفل كما يقول عبادة بن الصامت ودعوتهم إلى طاعة الله وطاعة الرسول ، وتذكيرهم بإيمانهم وهذا مقتضاه . ورسم للمؤمنين صورة موحية تجف لها القلوب : «**يسألونك عن الأنفال . قل : الأنفال لله والرسول . فاتقوا الله ، وأصلحوا**

ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله، إن كنتم مؤمنين . إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم» ..

ثم جعل يذكرهم بأمرهم وتدبيرهم لأنفسهم وتدبير الله لهم ، ومدى ما يرونه من واقع الأرض ومدى قدرة الله من ورائه ومن ورائهم : «كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون . يجادلونك فى الحق بعد ما تبين ، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون» ...

ثم ذكرهم بما أمدهم به من العون .. وما يسره لهم من النصر ، وما قدره لهم بفضله من الأجر : «إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم

إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب . ذلكم فذوقوه ، وأن للكافرين عذاب النار» .

وهكذا يمضى سياق السورة فى هذا المجال ؛ يسجل أن المعركة بجملتها من صنع الله وتدبيره بقيادته وتوجيهه . بعونه ومدده بفعله وقدره . له وفى سبيله .. ومن ثم تجريد المقاتلين ابتداء من الأنفال وتقرير أنها لله وللرسول ، حتى إذا ردها الله عليهم كان ذلك مناً منه وفضلا . وكذلك يجردهم من كل مطمع فيها ومن كل مغنم ؛ ليكون جهادهم فى سبيله خالصاً له وحده .. فترد أمثال هذه النصوص

**«فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت — إذ رميت — ولكن الله رمى ، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً ، إن الله سميع عليم . ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين» .**

**«واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن**

**يتخطفكم الناس ، فآواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون» .**

«واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . إن كنتم آمنتم بالله وماأنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . والله على كل شيء قدير . إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى ، والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ، ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولا ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة ، وإن الله لسميع عليم إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ، ولو أراكم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ، ولكن الله سلم ، إنه عليم بذات الصدور . وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ، ويقللكم فى أعينهم ، ليقضى الله أمراً كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور» ..

* * *

ولأن المعركة — كل معركة يخوضها المؤمنون — من صنع الله وتدبيره . بقيادته وتوجيهه . بعونه ومدده . بفعله وقدره . له وفى سبيله . تتكرر الدعوة فى السورة إلى الثبات فيها ، والمضى معها ، والاستعداد لها ، والاطمئنان إلى تولى الله فيها ، والحذر من المعوقات

عنها من فتنة الأموال والأولاد ، والاستمساك بآدابها ، وعدم الخروج لها بطراً ورثاء الناس . ويؤمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بتحريض المؤمنين عليها .. وترد أمثال هذه النصوص فى بيان هذه المعانى :

«يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره — إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة — فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير» ..

«يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون» ..

«يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون . واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ، وأن الله عنده أجر عظيم» .

«يا أيها الذين آمنوا إذ لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم . واصبروا إن الله مع الصابرين . ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ، ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط» .

«وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم ، وأنتم لا تظلمون» ..

«يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ..» ..

وفى ذات الوقت الذى تكرر الأوامر بالتثبيت فى المعركة يتجه السياق إلى توضيح معالم العقيدة وتعميقها ورد كل أمر وكل توجيه إليها . فلا تبقى الأوامر معلقة فى الفراغ ، إنما ترتكز على ذلك الأصل الواضح الثابت العميق :

« أ » فى مسألة الأنفال يردون إلى تقوى الله ، والوجل عند ذكره ، وتعلق الإيمان بطاعة الله وطاعة رسوله : «يسألونك عن الأنفال . قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ، إن كنتم مؤمنين . إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون» ... «الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم» .

«ب» وفى خطة المعركة يردون إلى قدر الله وتدبيره ، وتصريفه لمراحلها جميعاً : «إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى ، والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ، ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولا ..» .

«ج» وفى أحداثها ونتائجها يردون إلى قيادة الله لها ، ومدده وعونه فيها : «فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ، ولكن الله رمى ، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً ...» ..

« د » وفى الأمر بالثبات فيها يردون إلى ما يريده الله لهم بها من حياة ، وإلى قدرته على الحيلولة بينهم وبين قلوبهم ، وإلى تكلفه بنصر من يتوكل عليه : «يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون» .. «يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون» ..

«ه» وفى تحديد الهدف من وراء المعركة يقرر : «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله» .. «ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض» .. «وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق

الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون» ..

لقد كانت هذه الغزوة هى أول وقعة كبيرة لقى فيها المسلمون أعداءهم من المشركين ، فهزموهم تلك الهزيمة الكبيرة .. ولكن المسلمين لم يكونوا قد خرجوا لهذه الغاية .. لقد كانوا إنما خرجوا ليأخذوا الطريق على قافلة قريش الذين أخرجوا المهاجرين من ديارهم وأموالهم ! فأراد الله للعصبة المسلمة غير ما أرادت لنفسها من الغنيمة .. أراد لها أن تنفلت منها القافلة وأن تلقى عدوها من عتاة قريش الذين جمدوا الدعوة فى مكة ؛ ومكروا مكرهم لقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ بعدما بلغوا بأصحابه الذين تابعون على الهدى غاية التعذيب والتنكيل والأذى ..

لقد أراد الله سبحانه أن تكون هذه الوقعة فرقاناً بين الحق والباطل ؛ وفرقاناً فى خط سير التاريخ الإسلامى . ومن ثم فرقاناً فى خط سير التاريخ الإنسانى .. وأراد أن يظهر فيها الآماد البعيدة بين تدبير البشر لأنفسهم فيما يحسبونه الخير لهم . وتدبير رب البشر لهم ولو كرهوه فى أول الأمر . كما أراد أن تتعلم العصبة المؤمنة عوامل النصر وعوامل الهزيمة ؛ وتتلقاها مباشرة من يد ربها ووليها ، وهى فى ميدان المعركة وأمام مشاهدها .

«إذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم . إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام.إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب . ذلكم فذوقوه ، وأن للكافرين عذاب النار» ..

**٣ — نعم الله فى بدر :**

إنها المعركة كلها تدار بأمر الله ومشيئته ، وتدبيره وقدره ؛ وتسير بجند الله وتوجيهه .. وهى شاخصة بحركاتها وخطراتها من خلال العبارة القرآنية المصورة المتحركة المحيية للمشهد الذى كان ، كأنه يكون الآن ! .

(أ) **قصة الاستغاثة** : روى الإمام أحمد — بإسناده — عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما كان يوم بدر نظر النبى — صلى الله عليه وسلم — إلى أصحابه وهم ثلاث مائة ونيف ، ونظر إلى

المشركين فإذا هم ألف وزيادة (١) . فاستقبل النبي — صلى الله عليه وسلم — القبلة ، وعليه رداؤه وإزاره ، ثم قال : «اللهم أنجز لى ما وعدتنى . اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد فى الأرض أبداً» قال : فمازال يستغيث ربه ويدعوه ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه ، ثم التزمه من ورائه ثم قال : يا نبي الله ، كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله عز وجل : «إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين» ..

وتروى روايات كثيرة مفصلة عن الملائكة فى يوم بدر : عددهم . وطريقة مشاركتهم فى المعركة . وما كانوا يقولونه للمؤمنين مثبتين وما كانوا يقولونه للمشركين مخذلين ... ونحن — على طريقتنا فى الظلال — نكتفى فى مثل هذا الشأن من عوالم الغيب بما يرد فى النصوص المستيقنة من قرآن أو سنة . والنصوص القرآنية هنا فيها الكفاية : «إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين .. فهذا عددهم .. «إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى

(١) فى روايات أخرى أنهم بين الألف والتسع مائة .

معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان» .. فهذا عملهم .. ولا حاجة إلى التفصيل وراء هذا فإن فيه الكفاية .. وبحسبنا أن نعلم أن الله لم يترك العصبة المسلمة وحدها فى ذلك اليوم ، وهى قلة والأعداء كثرة . وأن أمر هذه العصبة وأمر هذا الدين قد شارك فيه الملأ الأعلى مشاركة فعلية على النحو الذى يصفه الله ـ سبحانه ـ فى كلماته ..

قال البخارى : باب شهود الملائكة بدرا : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا جرير ، عن يحيى بن سعيد ، عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقى ، عن أبيه ـ وكان أبوه من أهل بدر ـ قال : جاء جبريل إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : «من أفضل المسلمين» ـ أو كلمة نحوها ـ قال : «وكذلك من شهد بدراً من الملائكة» ... (انفرد بإخراجه البخارى).

لقد استجاب لهم ربهم وهم يستغيثون ، وأنبأهم أنه ممدهم بألف من الملائكة مردفين .. ومع عظمة هذا الأمر ودلالته على قيمة هذه العصبة وقيمة هذا الدين فى ميزان الله ؛ إلا أن الله سبحانه لا يدع المسلمين يفهمون أن هناك سبباً ينشىء نتيجة ؛ إنما يرد الأمر كله

إليه — سبحانه — تصحيحاً لعقيدة المسلم وتصوره . فهذه الاستجابة وهذا المدد ، وهذا الإخبار به ... كل ذلك لم يكن إلا بشرى ، ولتطمئن به القلوب . أما النصر فلم يكن إلا من عند الله ولا يكون هذه هي الحقيقة الاعتقادية التي يقررها السياق القرآني هنا ، حتى لا يتعلق قلب المسلم بسبب من الأسباب أصلا ..

لقد كان حسب المسلمين أن يبذلوا ما في طوقهم فلا يستبقوا منه بقية ؛ وأن يغالبوا الهزة الأولى التي أصابت بعضهم في مواجهة الخطر الواقعي ، وأن يمضوا في طاعة أمر الله ، واثقين بنصر الله .. كان حسبهم هذا لينتهي دورهم ويجيء دور القدرة التي تصرفهم وتدبرهم .. وما عدا هذا فكان بشارة مطمئنة ، وتثبيتاً للقلوب في مواجهة الخطر الواقعي .. وإنه لحسب العصبة المؤمنة أن تشعر أن جند الله معها لتطمئن قلوبها وتثبت في المعركة . ثم يجيء النصر من عند الله وحده . حيث لا يملك النصر غيره . وهو «العزيز» القادر الغالب على أمره . وهو «الحكيم» الذي يحل كل أمر محله ..

**(ب) قصة النعاس :**

أما قصة النعاس الذي غشي المسلمين قبل المعركة فهي قصة حالة نفسية عجيبة ، لا تكون إلا بأمر الله وقدره وتدبيره .. لقد

فزع المسلمون وهم يرون أنفسهم قلة فى مواجهة خطر لم يحسبوا حسابه ولم يتخذوا له عدته .. فإذا النعاس يغشاهم ، ثم يصحون منه والسكينة تغمر نفوسهم ؛ والطمأنينة تفيض على قلوبهم (وهكذا كان يوم أحد .. تكرر الفزع ، وتكرر النعاس ، وتكررت الطمأنينة( .. ولقد كنت أمر على هذه الآيات ، وأقرأ أخبار هذا النعاس ، فأدركه كحادث وقع ، يعلم الله سره ، ويحكى لنا خبره.. ثم إذا بى أقع فى شدة ، وتمر على لحظات من الضيق المكتوم ، والتوجس القلق ، فى ساعة غروب ، ثم تدركنى سنة من النوم لا تتعدى بضع دقائق .. وأصحوا إنساناً جديداً غير الذى كان..ساكن النفس . مطمئن القلب . مستغرقاً فى الطمأنينة الواثقة العميقة .. كيف تم هذا ؟ كيف وقع هذا التحول المفاجىء ؟ لست أدرى ! ولكنى بعدها أدرك قصة بدر وأحد . أدركها فى هذه المرة بكيانى كله لا بعقلى . وأستشعرها حية فى حسى لا مجرد تصور . وأرى فيها يد الله وهى تعمل عملها الخفى المباشر .. ويطمئن قلبى ....

لقد كانت هذه الغشية ، وهذه الطمأنينة ، مدداً من أمداد الله للعصبة المسلمة يوم بدر .

ولفظ «يغشيكم» ولفظ «النعاس» ولفظ «أمنة» .. كلها تشترك

فى إلقاء ظل لطيف شفيف ؛ وترسم الظل العام للمشهد . وتصور حال المؤمنين يومذاك ، وتجلى قيمة هذه اللحظة النفسية الفاصلة بين حال للمسلمين وحال .

**(ج) قصة الماء** : وأما قصة الماء فهى قصة مدد آخر من أمداد الله للعصبة المسلمة ، قبيل المعركة .

قال على بن طلحة ، عن ابن عباس قال : نزل النبي — صلى الله عليه وسلم — حين سار إلى بدر والمشركون بينهم وبين الماء رملة وعصة ، وأصاب المسلمين ضعف شديد ، وألقى الشيطان فى قلوبهم الغيظ يوسوس بينهم : تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله ، وقد غلبكم المشركون على الماء ، وأنتم تصلون مجنبين ؟ فأمطر الله عليهم مطراً شديداً ، فشرب المسلمون وتطهروا ، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان ، وثبت الرمل حين أصابه المطر ، ومشى الناس عليه والدواب ، فساروا إلى القوم ، وأمد الله نبيه — صلى الله عليه وسلم بألف من الملائكة ، فكان جبريل فى خمسمائة مجنبة ، وميكائيل فى خمسمائة مجنبة» . .

ولقد كان ذلك قبل أن ينفذ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما أشار به الحباب بن المنذر من النزول على ماء بدر ؛ وتغوير ما وراءها من القلب .

«والمعروف أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لما صار إلى بدر نزل على أدنى ماء هناك أى أول ماء وجده — فتقدم إليه الحباب بن المنذر فقال : يا رسول الله ، هذا المنزل الذى نزلته ، منزل أنزلك الله إياه فليس لنا أن نجاوزه ، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة ؟ فقال : «بل منزل نزلته للحرب والمكيدة» . فقال : يا رسول الله ، ليس بمنزل ، ولكن سر بنا حتى ننزل على أدنى ماء يلى القوم ونغور ما وراءه من القلب ونسقى الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء . فسار رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ففعل ذلك (١)» .

فى هذه الليلة — وقبل إنفاذ مشورة الحباب بن المنذر — كانت هذه الحالة التى يذكر الله بها العصبة التى شهدت بدراً .. والمدد على هذا النحو مدد مزدوج : مادى وروحى . فالماء فى الصحراء مادة الحياة ، فضلا على أن يكون أداة النصر . والجيش الذى يفقد الماء فى الصحراء يفقد أعصابه قبل أن يواجه المعركة . ثم هذه الحالة النفسية التى صاحبت الموقف ووسوس بها الشيطان ! حالة التحرج من أداة الصلاة على غير طهر لعدم وجود الماء (ولم يكن قد رخص

---

(١) عن ابن كثير فى التفسير .

لهم بعد فى التيمم ، فقد جاء هذا متأخراً فى غزوة بنى المصطلق فى السنة الخامسة) . وهنا تثور الهواجس والوساوس ، ويدخل الشيطان من باب الإيمان ليزيد حرج النفوس ووجل القلوب ! والنفوس التى تدخل المعركة فى مثل هذا الحرج وفى مثل هذا القلق تدخلها مزعزعة مهزومة من داخلها .. وهنا يجىء المدد وتجىء النجدة ..

ويتم المدد الروحى بالمدد المادى ؛ وتسكن القلوب بوجود الماء ، وتطمئن الأرواح بالطهارة : وتثبت الأقدام بثبات الأرض وتماسك الرمال .

**( د ) قصة الملائكة :**

ذلك إلى ما أوحى الله به إلى الملائكة من تثبيت الذين آمنوا ؛ وإلى ما وعد به من إلقاء الرعب فى قلوب الذين كفروا ؛ وإلى ما أمر به الملائكة من الاشتراك الفعلى فى المعركة .

إنه الأمر الهائل .. إنها معية الله سبحانه للملائكة فى المعركة ؛ واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المسلمة .. هذا هو الأمر الذى لا يجوز أن يشغلنا عنه أن نبحث : كيف اشتركت الملائكة ؟ ولا كم قتيلا قتلت ؟ ولا كيف قتلت ؟ ... إن الحقيقة الكبيرة الهائلة فى الموقف هى تلك الحقيقة .. إن حركة العصبة المسلمة فى الأرض

بهذا الدين أمر هائل عظيم .. أمر يستحق معية الله لملائكته فى المعركة واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المسلمة !

إننا نؤمن بوجود خلق من خلق الله اسمهم الملائكة ؛ ولكننا لا ندرك من طبيعتهم إلا ما أخبرنا به خالقهم عنهم . فلا نملك من إدراك الكيفية التى اشتركوا بها فى نصر المسلمين يوم بدر إلا بمقدار ما يقرره النص القرآنى .. وقد أوحى إليهم ربهم : أنى معكم . وأمرهم أن يثبتوا الذين آمنوا ، ففعلوا — لأنهم يفعلون ما يؤمرون — ولكننا لا ندرى كيف فعلوا . وأمرهم أن يضربوا فوق أعناق المشركين وأن يضربوا منهم كل بنان . ففعلوا كذلك بكيفية لا نعلمها ، فهذا فرع من طبيعة إدراكنا نحن لطبيعة الملائكة ، ونحن لا نعلم عنها إلا ما علمنا الله .. ولقد وعد الله سبحانه أن يلقى الرعب فى قلوب الذين كفروا . فكان ذلك ، ووعده الحق ، ولكنا كذلك لا نعلم كيف كان . فالله هو الذى خلق ، وهو أعلم بمن خلق ، وهو يحول بين المرء وقلبه ؛ وهو أقرب إليه من حبل الوريد .!

**(ﻫ) تقليل عدد المشركين :**

«إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ، ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر . ولكن الله سلم . إنه عليم بذات الصدور» .

ولقد كان من تدبير الله فى المعركة أن يرى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الكافرين فى الرؤيا فى منامه قليلا لا قوة لهم ولا وزن. فينبيء أصحابه برؤياه ، فيستبشروا بها ويتشجعوا على خوض المعركة .. ثم يخبر الله هنا لم أراهم لنبيه قليلا . فلقد علم — سبحانه — أنه لو أراهم له كثيراً ، لفت ذلك فى قلوب القلة التى معه ، وقد خرجت على غير استعداد ولا توقع لقتال ، ولضعفوا عن لقاء عدوهم ؛ وتنازعوا فيما بينهم على ملاقاتهم : فريق يرى أن يقاتلهم وفريق يرى تجنب الالتحام بهم .. وهذا النزاع فى هذا الظرف هو أبأس ما يصيب جيشاً يواجه عدواً !

ولقد كان — سبحانه — يعلم بذوات الصدور ، فلطف بالعصبة المسلمة أن يعرضها لما يعلمه من ضعفها فى ذلك الموقف ؛ فأرى نبيه المشركين فى رؤياه قليلا ، ولم يرهم إياه كثيراً ..

والرؤيا صادقة فى دلالتها الحقيقية . فقد رآهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قليلا .. وهم كثير عددهم ، ولكن قليل غناؤهم ، قليل وزنهم فى المعركة ، قلوبهم خواء من الإدراك الواسع والإيمان الدافع ، والزاد النافع .. وهذه الحقيقة الواقعة — من وراء الظاهر الخادع — هى التى أراها الله لرسوله ؛ فأدخل بها الطمأنينة

على قلوب العصبة المسلمة . والله عليم بسرائرهم ، مطلع على قلة عددهم وضعف عدتهم ، وما تحدثه فى نفوسهم لو عرفوا كثرة عدوهم ، من ضعف عن المواجهة ؛ وتنازع على الالتحـــام أو الإحجام . وكان هذا تدبيراً من تدبير الله العليم بذات الصدور .

وحينما التقى الجمعان وجهاً لوجه ، تكررت الرؤيا النبوية الصادقة فى صورة عيانية من الجانبين ؛ وكان هذا من التدبير الذى يذكرهم الله به ؛ عند استعراض المعركة وأحداثها وما وراءها .

ولقد كان فى هذا التدبير الإلهى ما أغرى الفريقين بخوض المعركة .. والمؤمنون يرون أعداءهم قليلا — لأنهم يرونهم بعين الحقيقة ! — والمشركون يرونهم قليلا — وهم يرونهم بعين الظاهر — ومن وراء الحقيقتين اللتين رأى كل فريق منهما صاحبه بها ، تحققت غاية التدبير الإلهى ؛ ووقع الأمر الذى جرى به قضاؤه ..

**٤ — أسرى بدر :**

«ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم . فكلوا مما غنمتم حلالا طيباً ، واتقوا الله ، إن الله غفور رحيم .

« يا أيها النبي قل لمن فى أيديكم من الأسرى : إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم ، والله غفور رحيم . وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم ، والله عليم حكيم» ..

قال ابن إسحاق — وهو يقص أخبار الغزوة — : «فلما وضع القوم أيديهم يأسرون ، ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى العريش ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم — متوشحاً السيف فى نفر من الأنصار يحرسون رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يخافون عليه كرة العدو ، ورأى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيما ذكر لى ، فى وجه سعد الكراهية لما يصنع الناس ، فقال له رسول الله — صلى الله عليه وسلم «والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم !» قال : أجل والله يا يارسول الله، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان فى القتل أحب إلى من استبقاء الرجال !

وروى الإمام أحمد — بإسناده — عن ابن عباس عن عمر رضى الله عنهم — قال : لما كان يومئذ التقوا ، فهزم الله المشركين ، فقتل منهم سبعون رجلا ، واستشار رسول الله — صلى الله عليه وسلم

أبا بكر وعمر وعلياً. فقال أبو بكر : يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ؛ وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : «ما ترى يا ابن الخطاب ؟» قال قلت : والله ما أرى رأى أبي بكر ، ولكني أرى أن تمكني من فلان — قريب لعمر — فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل (ابن أبي طالب) فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادةللمشركين هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم ! .. فهوى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت ، وأخذ منهمالفداء فلما كان من الغد — قال عمر — فغدوت إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — وأبي بكر وهما يبكيان . فقلت : ما يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد تباكيت لبكائكما ! قال النبي — صلى الله عليه وسلم — : «للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء . لقد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة — لشجرة قريبة من النبي صلى الله عليه وسلم — وأنزل الله عز وجل : «ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض» إلى قوله :

«فكلوا مما غنمتم حلالا طيباً» فأحل لهم الغنائم ... ورواه مسلم وأبو داود والترمذى وابن جرير وابن مردويه من طرق عن عكرمة بن عمار اليمانى .

وقال الإمام أحمد : حدثنا على بن هاشم ، عن حميد ، عن أنس — رضى الله عنه — قال : استشار النبى صلى الله عليه وسلم الناس فى الأسارى يوم بدر ، فقال : «إن الله قد أمكنكم منهم» فقام عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله اضرب أعناقهم . فأعرض عنه النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : «يا أيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم وإنما هم إخوانكم بالأمس» فقام عمر فقال : يا رسول الله ، اضرب أعناقهم . فأعرض عنه النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال للناس مثل ذلك . فقام أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال : يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء . قال : فذهب عن وجه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما كان فيه من الغم ، فعفا عنهم وقبل منهم الفداء . قال : وأنزل الله عز وجل : «لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم» . .

وقال الأعمش ، عن عمر بن مرة ، عن أبى عبيدة ، عن عبدالله ، قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم

«ماتقولون فى الأسارى ؟» فقال أبو بكر : يا رسول الله ، قومك وأهلك ، استبقهم واستتبهم لعل الله أن يتوب عليهم .. وقال عمر : يا رسول الله ، كذبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم .. وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله أنت فى واد كثير الحطب . فأضرم الوادى عليهم ناراً ثم ألقهم فيه ! فسكت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فلم يرد عليهم شيئاً ثم قام فدخل . فقال ناس : يأخذ بقول أبى بكر . وقال ناس : يأخذ بقول عمر . وقال ناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة . ثم خرج عليهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : «إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام قال : «فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم» وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام قال : «إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» . وإن مثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام قال : «ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم» . وإن مثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام قال : «رب لا تذر على الأرض من الكافرين

دياراً» . أنتم عالة فلا ينفكن أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق» .
قال ابن مسعود : قلت : يا رسول الله ، إلا سهيل بن بيضاء فإنه يذكر الإسلام ! فسكت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فما رأيتني فى يوم أخوف من أن تقع على حجارة من السماء منى فى ذلك اليوم ، حتى قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — «إلا سهيل بن بيضاء» . فأنزل الله عز وجل : «ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ...) إلى آخر الآية ... (رواه الإمام أحمد والترمذى من حديث أبى معاوية عن الأعمش به ، والحاكم فى مستدركه وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه) .

والإثخان المقصود : التقتيل حتى تضعف شوكة المشركين وتشتد شوكة المسلمين ، وهذا ما كان ينبغى قبل أن يكون للنبي والمسلمين أسرى يستبقوهم ويطلقونهم بالفدية كما حدث فى بدر . فعاتب الله المسلمين فيه .

لقد كانت غزوة بدر هى المعركة الأولى بين المسلمين والمشركين وكان المسلمون مايزالون قلة والمشركون مايزالون كثرة . وكان نقص عدد المحاربين من المشركين مما يكسر شوكتهم ويذل كبرياءهم ويعجزهم عن معاودة الكرة على المسلمين . وكان هذا هدفاً كبيراً

لا يعدله المال الذى يأخذونه مهما يكونوا فقراء .

وكان هنالك معنى آخر يراد تقريره فى النفوس وتثبيته فى القلوب .. ذلك هو المعنى الكبير الذى عبر عنه عمر رضى الله عنه فى صرامة ونصاعة وهو يقول : «وحتى يعلم الله أن ليس فى قلوبنا هوادة للمشركين» .

لهذين السببين البارزين نحسب — والله أعلم — أن الله — سبحانه كره للمسلمين أن يأخذوا الأسرى يوم بدر وأن يفادوهم بمال . ولهذه الظروف الواقعية التى كان يواجهها النص — وهو يواجهها كلما تكررت هذه الظروف — قال الله تعالى :

«ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض» ..

ولذلك عرض القرآن بالمسلمين الذين قبلوا الفداء فى أسرى المعركة الأولى :

«تريدون عرض الدنيا» ..

أى : فأخذتموهم أسرى بدل أن تقتلوهم ، وقبلتم فيهم الفداء وأطلقتموهم !

«والله يريد الآخرة» ..

والمسلمون عليهم أن يريدوا ما يريد الله ، فهو خير وأبقى .

والآخرة تقتضي التجرد من إرادة عرض الدنيا ! «والله عزيز حكيم» قدر لكم النصر ، وأقدركم عليه ، لحكمة يريدها من قطع دابر الكافرين «ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون» .

«لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم» ..

ولقد سبق قضاء الله بأن يغفر لأهل بدر ما يفعلون ؛ فوقاهم سبق قضائه فيهم ما كان يستحقه أخذهم الفداء من العذاب العظيم !

ثم زادهم الله فضلا ومنة ؛ فجعل غنائم الحرب حلالا لهم — ومنها هذه الفدية التي عوتبوا فيها — وكانت محرمة في الديانات قبلهم على أتباع الرسل — مذكراً إياهم بتقوى الله ، وهو يذكر لهم رحمته ومغفرته ، لتتوازن مشاعرهم تجاه ربهم ، فلا تغرهم المغفرة والرحمة ، ولا تنسيهم التقوى والتحرج والمخافة :

«فكلوا مما غنمتم حلالا طيباً ، واتقوا الله ، إن الله غفور رحيم»

ثم يلمس قلوب الأسرى لمسة تحيي فيها الرجاء ، وتطلق فيها الأمل ، وتشيع فيها النور ، وتعلقها بمستقبل خير من الماضي ، وبحياة أكرم مما كانوا فيه ، وبكسب أرجح مما فقدوا من مال وديار وبعد ذلك كله بالمغفرة والرحمة من الله :

«يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى : إن يعلم الله في

قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ، ويغفر لكم ، والله غفور رحيم» ..

هذا الخير كله معلق بأن تصلح قلوبهم فتتفتح لنور الإيمان ؛ فيعلم الله أن فيها خيراً .. والخير هو الإيمان حتى ما يحتاج إلى ذكر وتنصيص . الخير محض الخير ، و الذى لا يسمى شىء ما خيراً إلا أن يستمد منه وينبثق منه ويقوم عليه .

إن الإسلام إنما يستبقى الأسرى لديه ، ليلمس فى قلوبهم مكامن الخير والرجاء والصلاح . وليوقظ فى فطرتهم أجهزة الاستقبال والتلقى والتأثر والاستجابة للهدى . لا ليستذلهم انتقاماً ، ولا ليسخرهم استغلالا ، كما كانت تتجه فتوحات الرومان ؛ وكما تتجه فتوحات الأجناس والأقوام !

عن الزهرى عن جماعة سماهم قال : بعثت قريش فى فداء أسراهم ، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا . وقال العباس : يا رسول الله قد كنت مسلماً ! فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم الله أعلم بإسلامك ، فإن تكن كما تقول فإن الله يجزيك ، وأما ظاهرك فقد كان علينا ، فافتد نفسك وابنى أخيك نوفل بن الحارث ابن عبد المطلب ، وعقيل بن أبى طالب بن عبد المطلب ، وحليفك

عتبة بن عمرو وأخى بنى الحارث بن فهر» : قال : ماذاك عندى يا رسول الله ! قال : «فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل ، قلت لها : إن أصبت فى سفرى هذا فهذا المال الذى دفنته لبنى الفضل وعبد الله وقثم ؟» . قال : «والله يا رسول الله إنى لأعلم أنك رسول الله . إن هذا لشىء ما علمه أحد غيرى وغير أم الفضل . فاحسب لى يا رسول الله ما أصبتم منى — عشرين أوقية من مال كان معى ! — فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : «لا . ذاك شىء أعطانا الله تعالى منك» . ففدى نفسه وبنى أخويه وحليفه فأنزل الله عز وجل : «يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ، والله غفور رحيم» .. قال العباس : فأعطانى الله مكان العشرين أوقية فى الإسلام عشرين عبداً كلهم فى يده مال يضرب به ، مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل .

وفى الوقت الذى يفتح الله للأسارى نافذة الرجاء المشرق الرحيم يحذرهم خيانة الرسول — صلى الله عليه وسلم — كما خانوا الله من قبل فلاقوا هذا المصير :

«وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم ، والله عليم حكيم» ..

لقد خانوا الله فأشركوا به غيره ، ولم يفردوه سبحانه بالربوبية ، وهو قد أخذ العهد على فطرتهم فخانوا عهده . فإن أرادوا خيانة رسوله — صلى الله عليه وسلم — وهم أسرى في يديه ، فليذكروا عاقبة خيانتهم الأولى التي أوقعتهم في الأسر ، ومكنت منهم رسول الله وأولياءه .. والله «عليم» بسرائرهم «حكيم» في إيقاع العقاب بهم: «والله عليم حكيم» ..

قال القرطبي في التفسير ، قال ابن العربي : لما أسر من أسر من المشركين ، تكلم قوم منهم بالإسلام ، ولم يمضوا فيه عزيمة ، ولا اعترفوا به اعترافاً جازماً . ويشبه أنهم أرادوا أن يقربوا من المسلمين ولا يبعدوا من المشركين — قال علماؤنا — إن تكلم الكافر بالإيمان في قلبه وبلسانه ولم يمض فيه عزيمة لم يكن مؤمناً . وإذا وجد مثل ذلك من المؤمن كان كافراً . إلا ما كان من الوسوسة التي لا يقدر على دفعها ، فإن الله قد عفا عنها وأسقطها . وقد بين الله لرسوله صلى الله عليه وسلم — الحقيقة فقال : «وإن يريدوا خيانتك» . أي إن كان هذا القول منهم خيانة ومكراً «فقد خانوا الله من قبل»

بكفرهم ومكرهم بك وقتالهم لك . وإن كان هذا القول منهم خيراً ، ويعلمه الله ، فيقبل منهم ذلك ويعوضهم خيراً مما خرج عنهم : ويغفر لهم ما تقدم من كفرهم وخيانتهم ومكرهم .

**(٥) الغنـــائم :**

«واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه ، وللرسول ، ولذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل .. إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان .. والله على كل شيء قدير» ..

وبين الروايات المأثورة والآراء الفقهية خلاف طويل .. **أولا** : حول مدلول «الغنائم» ومدلول «الأنفال» هل هما شيء واحد ، أم هما شيئان مختلفان ؟ **وثانياً** : حول هذا الخمس — الذى يتبقى بعد الأخماس الأربعة التى منحها الله للمقاتلين — كيف يقسم ؟ **وثالثاً** : حول خمس الخمس الذى لله . أهو الخمس الذى لرسول الله ، أم هو خمس مستقل ؟ .. **ورابعاً** : حول خمس الخمس الذى لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — أهو خاص به أم ينتقل لكل إمام بعده ؟ **وخامساً** : حول خمس الخمس الذى لأولى القربى ، أهو باق فى قرابة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من بنى هاشم وبنى

عبد المطلب، كما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أم يرجع إلى الإمام يتصرف فيه ؟ وسادساً : أهى أخماس محددة يقسم إليها الخمس ، أم يترك التصرف فيه كله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولخلفائه من بعده ؟ .. وخلافات أخرى فرعية .

ونحن — على طريقتنا فى هذه الظلال — لا ندخل فى هـــذه التفريعات الفقهية التى يحسن أن تطلب فى مباحثها الخاصة .. هذا بصفة عامة .. وبصفة خاصة فإن موضوع الغنائم بجملته ليس واقعاً إسلامياً يواجهنا اليوم أصلا . فنحن اليوم لسنا أمام قضية واقعة ، لسنا أمام دولة مسلمة وإمامة مسلمة وأمة مسلمة تجاهد فى سبيل الله ، ثم تقع لها غنائم تحتاج إلى التصرف فيها ! لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين إلى البشرية أول مرة ؛ ورجع الناس إلى الجاهلية التى كانوا عليها ، فأشركوا مع الله أرباباً أخرى تصرف حياتهم بشرائعها البشرية ! ولقد عاد هذا الدين أدراجه ليدعو الناس من جديد إلى الدخول فيه .. إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .. إلى إفراد الله سبحانه بالألوهية والحاكمية والسلطان . والتلقى فى هذا الشأن عن رسول الله وحده ! وإلى التجمع تحت قيادة مسلمة تعمل لإعادة إنشاء هذا الدين فى حياة البشر ، والتوجه

بالولاء كله لهذا التجمع ولقيادته المسلمة ؛ ونزع هذا الولاء من المجتمعات الجاهلية وقياداتها جميعاً .

هذه هي القضية الحية الواقعية التي تواجه اليوم هذا الدين ؛ وليس هناك — في البدء — قضية أخرى سواها .. ليس هناك قضية غنائم ، لأنه ليس هناك قضية جهاد ! بل ليس هناك قضية تنظيمية واحدة ، لا في العلاقات الداخلية ولا في العلاقات الخارجية ، وذلك لسبب بسيط : هو أنه ليس هناك مجتمع إسلامي ذو كيان قائم مستقل يحتاج إلى الأحكام التي تضبط العلاقات فيه والعلاقات بينه وبين غيره من المجتمعات الأخرى ! ! !

والمنهج الإسلامي منهج واقعي ، لا يشتغل بقضايا ليست قائمة بالفعل ؛ ومن ثم لا يشتغل أصلاً بأحكام تتعلق بهذه القضايا التي لا وجود لها من ناحية الواقع ! .. إنه منهج أكثر جدية وواقعية من أن يشتغل بالأحكام ! هذا ليس منهج هذا الدين . هذا منهج الفارغين الذين ينفقون أوقات الفراغ في البحوث النظرية وفي الأحكام الفقهية حيث لا مقابل لها من الواقع أصلاً ! بدلاً من أن ينفقوا هذه الجهود في إعادة إنشاء المجتمع المسلم وفق المنهج الحركي الواقعي لهذا الدين نفسه : دعوة إلى لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ ينشأ عنها

دخول فئة فى هذا الدين من جديد — كما دخل فيه الناس أول مرة كما ينشأ عن هذا الدخول فى الدين تجمع حركى ذو قيادة مسلمة وذو ولاء خاص به وذو كينونة مستقلة عن المجتمعات الجاهلية .. ثم يفتح الله بينه وبين قومه بالحق .. ثم يحتاج حينئذ — وحينئذ فقط إلى الأحكام التى تنظم علاقاته فيما بينه ، كما يحتاج إلى الأحكام التى تنظم علاقاته مع غيره .. وحينئذ — وحينئذ فقط — يجتهد المجتهدون فيه لاستنباط الأحكام التى تواجه قضاياه الواقعية — فى الداخل وفى الخارج — وحينئذ — وحينئذ فقط — تكون لهذا الاجتهاد قيمته ، لأنه تكون لهذا الاجتهاد جديته وواقعيته ! .

من أجل هذا الإدراك لجدية المنهج الحى الواقعى الحركى لهذا الدين ، لا ندخل هنا فى تلك التفصيلات الفقهية الخاصة بالأنفال والغنائم ؛ حتى يحين وقتها عندما يشاء الله ؛ وينشأ المجتمع الإسلامى ، ويواجه حالة جهاد فعلى ، تنشأ عنه غنائم تحتاج إلى أحكام ! وحسبنا فى هذه الظلال — أن نتتبع الأصل الإيمانى فى السياق التاريخى الحركى والمنهج القرآنى التربوى . فهذا هو العنصر الثابت ، الذى لا يتأثر بالزمن فى هذا الكتاب الكريم .. وكل ما عداه تبع له وقائم عليه

إن الحكم العام الذى تضمنه النص القرآنى :

«واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه ، وللرسول . ولذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل» .

يتلخص فى رد أربعة أخماس كل شىء من الغنيمة إلى المقاتلين ، واستبقاء الخمس يتصرف فيه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والأئمة المسلمون القائمون على شريعة الله المجاهدون فى سبيل الله ، من بعده فى هذه المصارف : «لله وللرسول ، ولذى القربى ، واليتامى والمساكين ، وابن السبيل» .. بما يواجه الحاجة الواقعة عند وجود ذلك المغنم . .. وفى هذا كفاية ..

## ثالثا : وبعد بدر ... دروس

(١) عوامل النصر فى بدر .

(٢) «الثبات والفرار» .

(٣) موقف الكفار بعد بدر .

## ثالثا : وبعد بدر ... دروس

### ١ — عوامل النصر فى بدر

«يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله . ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين . ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط» ..

فهذه هى عوامل النصر الحقيقية : الثبات عند لقاء العدو . والاتصال بالله بالذكر . والطاعة لله والرسول وتجنب النزاع والشقاق والصبر على تكاليف المعركة . والحذر من البطر والرئاء والبغى ..

**(١) الثبات عند لقاء العدو :**

فأما الثبات فهو بدء الطريق إلى النصر . فأثبت الفريقين أغلبهما وما يدرى الذين آمنوا أن عدوهم يعانى أشد مما يعانون ؛ وأنه يألم كما يألمون ، ولكنه لا يرجو من الله ما يرجون ، فلا مدد له من رجاء فى الله يثبت أقدامه وقلبه ! وأنهم لو ثبتوا لحظة أخرى فسينخذل عدوهم وينهار . وما الذى يزلزل أقدام الذين آمنوا وهم واثقون من إحدى الحسنيين : الشهادة أو النصر ؟ بينما عدوهم لا

يريد إلا الحياة الدنيا ، وهو حريص على هذه الحياة التى لا أمل له وراءها ولا حياة له بعدها ، ولا حياة له سواها ؟!

**(٢) الاتصال بالله بالذكر :**

وأما ذكر الله كثيراً عند لقاء الأعداء فهو التوجيه الدائم للمؤمن كما أنه التعليم المطرد الذى استقر فى قلوب العصبة المؤمنة ، وحكاه عنها القرآن الكريم فى تاريخ الأمة المسلمة فى موكب الإيمان التاريخى

ومما حكاه القرآن الكريم من قول سحرة فرعون عندما استسلمت قلوبهم للإيمان فجأة ، فواجههم فرعون بالتهديد المروع البشع الطاغى ، قولهم : «وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا . ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين» ..

ومما حكاه كذلك عن الفئة القليلة المؤمنة من بنى إسرائيل ، وهى تواجه جالوت وجنوده : «ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا: ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين» ..

ومما حكاه عن الفئات المؤمنة على مدار التاريخ فى مواجهة المعركة : «وكأى من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا

وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين» ..

ولقد استقر هذا التعليم فى نفوس العصبة المسلمة ؛ فكان هذا شأنها حيثما واجهت عدواً . وقد حكى الله — فيما بعد — عن العصبة التى أصابها القرح فى «أحد» ؛ فلما دعيت إلى الخروج ثانى يوم ، كان هذا التعليم حاضراً فى نفوسها : «الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل» ..

إن ذكر الله عند لقاء العدو يؤدى وظائف شتى : إنه الاتصال بالقوة التى لا تغلب ؛ والثقة بالله الذى ينصر أولياءه .. وهو فى الوقت ذاته استحضار حقيقة المعركة وبواعثها وأهدافها ، فهى معركة لله ، لتقرير ألوهيته فى الأرض ، وطرد الطواغيت المغتصبة لهذه الألوهية ؛ وإذن فهى معركة لتكون كلمة الله هى العليا ؛ لا للسيطرة ، ولا للمغنم ، ولا للاستعلاء الشخصى أو القومى .. كما أنه توكيد لهذا الواجب — واجب ذكر الله — فى أحرج الساعات وأشد المواقف وكلها إيحاءات ذات قيمة فى المعركة ؛ يحققها هذا التعليم الربانى .

**(٣) الطاعة لله وللرسول :**

وأما طاعة الله ورسوله ، فلكى يدخل المؤمنون المعركة

مستسلمين لله ابتداء ؛ فتبطل أسباب النزاع التي أعقبت الأمر بالطاعة : «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم» .. فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه ؛ وإلا حين يكون الهوى المطاع هو الذي يوجه الآراء والأفكار . فإذا استسلم الناس لله ، ورسوله انتفى السبب الأول الرئيسي للنزاع بينهم — مهما اختلفت وجهات النظر في المسألة المعروضة — فليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر ، إنما هو الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصر عليها مهما تبين له وجه الحق فيها ! وإنما هو وضع «الذات» في كفة ، والحق في كفة ، وترجيح الذات على الحق ابتداء ! .. ومن ثم هذا التعليم بطاعة الله ورسوله عند المعركة . . إنه من عمليات «الضبط» التي لابد منها في المعركة .. إنها طاعة القيادة العليا فيها ، التي تنبثق منها طاعة الأمير الذي يقودها . وهي طاعة قلبية عميقة لا مجرد الطاعة التنظيمية في الجيوش التي لا تجاهد لله ، ولا يقوم ولاؤها للقيادة على ولائها لله أصلا .. والمسافة كبيرة كبيرة

### (٤) الصبر على تكاليف المعركة :

وأما الصبر . فهو الصفة التي لابد منها لخوض المعركة .. أية معركة .. في ميدان النفس أم في ميدان القتال . «واصبروا ، إن الله مع الصابرين» ..

وهذه المعية من الله هى الضمان للصابرين بالفوز والغلب والفلاح

**(٥) الحذر من البطر والرئاءوالبغى :**

ويبقى التعليم الأخير :

«ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط» ..

يبقى هذا التعليم ليحمى العصبة المؤمنة من أن تخرج للقتال متبطرة طاغية تتعاجب بقوتها ! وتستخدم نعمة القوة التى أعطاها الله لها فى غير ما أرادها .. والعصبة المؤمنة إنما تخرج للقتال فى سبيل الله ؛ تخرج لتقرير ألوهيته سبحانه فى حياة البشر ، وتقرير عبودية العباد لله وحده . وتخرج لتحطيم الطواغيت التى تغتصب حق الله فى تعبيد العباد له وحده ، والتى تزاول الألوهية فى الأرض بمزاولتها للحاكمية بغير إذن الله وشرعه — وتخرج لإعلان تحرير «الإنسان» فى «الأرض» من كل عبودية لغير الله ، تستذل إنسانية الإنسان وكرامته. وتخرج لحماية حرمات الناس وكراماتهم وحرياتهم ، لا للاستعلاء على الناس واستعبادهم والتبطر بنعمة القوة باستخدامها هذا الاستخدام المنكر . وتخرج متجردة من حظ نفسها فى المعركة جملة ، فلا يكون لها من النصر والغلب إلا تحقيق طاعة الله فى تلبية أمره بالجهاد ؛ وفى

إقامة منهجه فى الحياة ، وفى إعلاء كلمته فى الأرض ؛ وفى التماس فضله بعد ذلك ورضاه .. حتى الغنائم التى تخلفها المعركة فهى من فضل الله ..

ولقد كانت صورة الخروج بطراً ورئاء الناس وصدا عن سبيل الله حاضرة أمام العصبة المسلمة ؛ يرونها فى خروج قريش بالصورة التى خرجت بها ؛ كما كانت صورة العاقبة لهذا الخروج حاضرة فيما أصاب قريشاً التى خرجت فى ذلك اليوم بفخرها وعزها وكبريائها تحاد الله ورسوله : وعادت فى آخر اليوم بالذل والخيبة والانكسار والهزيمة .. وكان الله سبحانه يذكر العصبة المسلمة بشىء حاضر له وقعه وله إيحاؤه .

والبطر والمراءاة والصد عن سبيل الله تتجلى كلها فى قولة أبى جهل ، وقد جاءه رسول أبى سفيان — بعد أن ساحل بالعير فنجت من رصد المسلمين — يطلب إليه الرجوع بالنفير ، إذ لم تعد بهم حاجة لقتال محمد وأصحابه . وكانت قريش قد خرجت بالقيان والدفوف يغنون وينحرون الجزر على مراحل . فقال أبو جهل : «لا والله لا نرجع حتى نرد بدراً ، فنقيم ثلاثاً ، ننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونشرب الخمر ، وتعزف القيان علينا ، فلن تزال

العرب تهابنا أبداً» .. فلما عاد الرسول إلى أبي سفيان برد أبي جهل قال : «واقوماه ! هذا عمل عمرو بن هشام (يعني أبا جهل) كره أن يرجع ، لأنه ترأس على الناس فبغى ، والبغي منقصة وشؤم ، إن أصاب محمد النفير ذللنا» .. وصحت فراسة أبي سفيان ، وأصاب محمد — صلى الله عليه وسلم — النفير ؛ وذل المشركون بالبطر والبغي والرياء والصد عن سبيل الله ؛ وكانت بدر قاصمة الظهر لهم :

«والله بما يعملون محيط» ..

لا يفوته منهم شيء ، ولا يعجزه من قوتهم شيء ، وهو محيط بهم وبما يعملون .

(٢) «الثبات والفرار» :

«يا أيها الذين آمنوا إذ لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره — إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة — فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير . فلم تقتلوهم ؛ ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً ، إن الله سميع عليم . ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين

ويبدو فى التعبير القرآنى شدة فى التحذير ، وتغليظ فى العقوبة وتهديد بغضب من الله ومأوى فى النار :

«يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره — إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة — فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير» ..

**والمعنى** : يا أيها الذين آمنوا إذا واجهتم الذين كفروا «زحفا» أى متدانين متقاربين متواجهين ؛ فلا تفروا عنهم ، إلا أن يكون ذلك مكيدة حرب ؛ حيث تختارون موقعاً أحسن ، أو تدبرون خطة أحكم ؛ أو أن يكون ذلك انضماماً إلى فئة أخرى من المسلمين ، أو إلى قواعد المسلمين ، لتعاودوا القتال .. وأن من تولى، وأعطى العدو دبره يوم الزحف فقد استحق ذلك العقاب : غضبا من الله ومأوى فى جهنم ..

وقد وردت بعض الأقوال فى اعتبار هذا الحكم خاصا بأهل بدر ، أو بالقتال الذى يكون رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حاضره . ولكن الجمهور على أنها عامة . وأن التولى يوم الزحف كبيرة من السبع الموبقات . كما روى البخارى ومسلم فى الصحيحين عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله

عليه وسلم — : «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل : يا رسول الله وما هن ؟ قال : «الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» ..

وقد أورد الجصاص فى «أحكام القرآن» تفصيلا لا بأس من الإلمام به قال :

«قال الله تعالى : «ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة» روى أبو نضرة عن أبى سعيد أن ذلك إنما كان يوم بدر . قال أبو نضرة لأنهم لو انحازوا إلى المشركين ، ولم يكن يومئذ مسلم غيرهم .. وهذا الذى قاله أبو نضرة ليس بسديد ، لأنه قد كان بالمدينة خلق كثير من الأنصار ، ولم يأمرهم النبى عليه السلام بالخروج ، ولم يكونوا يرون أنه يكون قتال ، وإنما ظنوا أنها العير ، فخرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيمن خف معه . فقول أبى نضرة إنه لم يكن هناك مسلم غيرهم وإنهم لو انحازوا ، انحازوا إلى المشركين ، غلط لما وصفنا .. وقد قيل : إنه لم يكن جائزاً لهم الانحياز يومئذ لأنهم كانوا مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولم يكن الانحياز جائزا لهم عنه ، قال الله تعالى : «ما كان لأهل

المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه» : فلم يكن يجوز لهم أن يخذلوا نبيهم — صلى الله عليه وسلم — وينصرفوا عنه ويسلموه ، وإن كان الله قد تكفل بنصره وعصمه من الناس ، كما قال الله تعالى : «والله يعصمك من الناس» وكان ذلك فرضا عليهم ، قلت أعداؤهم أو كثروا ، وأيضاً فإن النبي — صلى الله عليه وسلم — كان فئة المسلمين يومئذ ، ومن كان ينحاز عن القتال فإنما كان يجوز له الانحياز على شرط أن يكون انحيازه إلى فئة ، وكان النبي — صلى الله عليه وسلم — فئتهم يومئذ ، ولم تكن فئة غيره . قال ابن عمر : كنت في جيش ، فحاص الناس حيصة واحدة ورجعنا إلى المدينة ، فقلنا : نحن الفرارون . فقال النبي عليه السلام : «أنا فئتكم» . فمن كان بالبعد من النبي — صلى الله عليه وسلم — إذا انحاز عن الكفار فإنما كان يجوز له الانحياز إلى فئة النبي — صلى الله عليه وسلم — وإذا كان معهم فى القتال لم يكن هنالك فئة غيره ينحازون إليه ، فلم يكن يجوز لهم الفرار . وقال الحسن فى قوله تعالى : «ومن يولهم يومئذ دبره» قال : شددت على أهل بدر . وقال الله تعالى : «إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا» وذلك لأنهم فروا عن النبي —

صلى الله عليه وسلم — وكذلك يوم حنين فروا عن النبي — صلى الله عليه وسلم — فعاقبهم الله على ذلك فى قوله تعالى : «ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ، فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين» .. فهذا كان حكمهم إذا كانوا مع النبي — صلى الله عليه وسلم — قل العدو أو أكثر ، إذا لم يجد الله فيه شيئا .. وقال الله تعالى فى آية أخرى : «يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا» وهذا — والله أعلم — فى الحال التى لم يكن النبي — صلى الله عليه وسلم — حاضرا معهم ، فكان على العشرين أن يقاتلوا المائتين لا يهربوا عنهم ، فإذا كان عدد العدو أكثر من ذلك أباح لهم التحيز إلى فئة من المسلمين فيهم نصرة لمعاودة القتال ، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى : «الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله» فروى عن ابن عباس أنه قال : كتب عليكم ألا يفر واحد من عشرة : ثم قلت : «الآن خفف عنكم وعلم أن فيكم ضعفا» ... الآية . فكتب عليكم ألا يفر مئة من مئتين . وقال ابن عباس : إن فر رجل من رجلين فقد فر ،

وإن فر من ثلاثة فلم يفر — قال الشيخ يعنى بقوله : فقد فر : الفرار من الزحف المراد بالآية ، والذى فى الآية إيجاب فرض القتال على الواحد لرجلين من الكفار ، فإن زاد عدد الكفار على اثنين فجائز حينئذ للواحد التحيز إلى فئة من المسلمين فيها نصرة ، فأما إن أراد الفرار ليلحق بقوم من المسلمين لا نصرة معهم فهو من أهل الوعيد المذكور فى قوله تعالى : «ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله» ولذلك قال النبى — صلى الله عليه وسلم — : «أنا فئة كل مسلم» . وقال عمر بن الخطاب لما بلغه أن أبا عبيد بن مسعود استقتل يوم الجيش حتى قتل ولم ينهزم : «رحم الله أبا عبيد ! لو انحاز إلى لكنت له فئة» . فلما رجع إليه أصحاب أبى عبيد قال : «أنا فئة لكم» ولم يعنفهم .. وهذا الحكم عندنا (يعنى عند الحنفية) ثابت ، مالم يبلغ عدد جيش المسلمين اثنى عشر ألفا لا يجوز لهم أن ينهزموا عن مثليهم إلا متحرفين لقتال ، وهو أن يصيروا من موضع إلى غيره مكايدين لعدوهم ، ونحو ذلك ، مما لا يكون فيه انصراف عن الحرب ، أو متحيزين إلى فئة من المسلمين يقاتلونهم معهم . فإذا بلغوا اثنى عشر ألفاً فإن محمد بن الحسن ذكر أن الجيش إذا بلغوا كذلك فليس لهم أن يفروا من

عدوهم ، وإن كثر عددهم ، ولم يذكر خلافا بين أصحابنا فيه (يعنى الحنفية) واحتج بحديث الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله ، أن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — : «خير الأصحاب أربعة . وخير السرايا أربع مائة . وخير الجيوش أربعة آلاف . ولن يؤتى اثنا عشر ألفا من قلة ولن يغلبوا» وفى بعضها : «ما غلب قوم يبلغون اثنى عشر ألفا إذا اجتمعت كلمتهم» . وذكر الطحاوى أما مالكاً سئل ، فقيل له : أيسعنا التخلف عن قتال من خرج عن أحكام الله وحكم بغيرها ؟ فقال مالك : إن كان معك اثنا عشر ألفا مثلك لم يسعك التخلف ، وإلا فأنت فى سعة من التخلف .. وكان السائل له عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر . وهذا المذهب موافق لما ذكر محمد بن الحسن . والذى روى عن النبى — صلى الله عليه وسلم — فى اثنى عشر ألفا فهو أصل فى هذا الباب ، وإن كثر عدد المشركين فغير جائز لهم أن يفروا منهم وإن كانوا أضعافهم لقوله — صلى الله عليه وسلم — «إذا اجتمعت كلمتهم» . وقد أوجب عليهم بذلك جمع كلمتهم» ... انتهى .

كذلك أورد «ابن العربى» فى «أحكام القرآن» تعقيبا على الخلاف فى المقصود بهذا الحكم قال :

«اختلف الناس : هل الفرار يوم الزحف مخصوص بيوم بدر ، أم عام فى الزحوف كلها إلى يوم القيامة ؟ .

«فروى ابن سعيد الخدرى أن ذلك يوم بدر ، لم يكن لهم فئة إلا رسول الله ؛ وبه قال نافع ، والحسن ، وقتادة ، ويزيد بن حبيب ، والضحاك .

«ويروى عن ابن عباس وسائر العلماء أن الآية باقية إلى يوم القيامة ؛ وإنما شذ من شذ بخصوص ذلك يوم بدر بقوله : «ومن يولهم يومئذ دبره» فظن قوم أن ذلك إشارة إلى يوم بدر . وليس به وإنما ذلك إشارة إلى يوم الزحف .

«والدليل عليه أن الآية نزلت بعد القتال ، وانقضاء الحرب ، وذهاب اليوم بما فيه . وقد ثبت عن النبى — صلى الله عليه وسلم — حسبما قدمناه فى الحديث الصحيح أن الكبائر كذا .. وعد الفرار يوم الزحف . وهذا نص فى المسألة يرفع الخلاف ، ويبين الحكم ، وقد نبهنا على النكتة التى وقع الإشكال فيها لمن وقع باختصاصه بيوم بدر» ..

ونحن نأخذ بهذا الرأى الذى ذكره ابن العربى من رأى «ابن عباس وسائر العلماء» .. ذلك أن التولى يوم الزحف على إطلاقه

يستحق هذا التشديد لضخامة آثاره الحركية من ناحية ، ولمساسه بأصل الاعتقاد من ناحية ..

إن قلب المؤمن ينبغي أن يكون راسخا ثابتا لا تهزمه في الأرض قوة ، وهو موصول بقوة الله الغالب على أمره ، القاهر فوق عباده

**(٣) موقف الكفار بعد بدر :**

والكفار ينفقون أموالهم ليتعاونوا على الصد عن سبيل الله .. هكذا فعلوا يوم بدر ، على نحو ما ذكرنا في سياق الحديث عن الموقعة من كتب السيرة .. وهكذا ظلوا بعد بدر يستعدون للوقعة التالية . والله ينذرهم بالخيبة فيما يبغون وبالحسرة على ما ينفقون ، ويعدهم الهزيمة في الدنيا وعذاب جهنم في الآخرة :

«إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله . فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ؛ ثم يغلبون ؛ والذين كفروا إلى جهنم يحشرون . ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض ، فيركمه جميعاً ، فيجعله في جهنم ، أولئك هم الخاسرون»

روى محمد بن إسحاق عن الزهرى وغيره قالوا : لما أصيبت قريش يوم بدر ، ورجع فلهم — أي جيشهم المهزوم — إلى مكة ؛ ورجع أبو سفيان بعيره ، مشى عبد الله بن ربيعة ، وعكرمة بن أبي

جهل ، وصفوان بن أمية ، فى رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر ، فكلموا أبا سفيان بن حرب ، ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش ، إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم ! فأعينونا بهذا المال على حربه ، لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا . ففعلوا . فقال : ففيهم — كما ذكر ابن عباس — أنزل الله عز وجل : «إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ...» .

وليس هذا الذى حدث قبل بدر وبعدها إلا نموذجاً من الأسلوب التقليدى لأعداء هذا الدين .. إنهم ينفقون أموالهم ، ويبذلون جهودهم ، ويستنفدون كيدهم ، فى الصد عن سبيل الله ، وفى إقامة العقبات فى وجه هذا الدين . وفى حرب العصبة المسلمة فى كل أرض وفى كل حين ..

إن المعركة لن تكف . وأعداء هذا الدين لن يدعوه فى راحة . ولن يتركوا أولياء هذا الدين فى أمن . وسبيل هذا الدين هو أن يتحرك ليهاجم الجاهلية ، وسبيل أوليائه أن يتحركوا لتحطيم قدرة الجاهلية على العدوان ؛ ثم لإعلاء راية الله حتى لا يجرؤ عليها الطاغوت .

والله — سبحانه — ينذر الكفار الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله بأنها ستعود عليهم بالحسرة .. إنهم سينفقونها لتضيع فى النهاية ، وليغلبوا هم وينتصر الحق فى هذه الدنيا . وسيحشرون فى الآخرة إلى جهنم ، فتتم الحسرة الكبرى .. ذلك ..

«ليميز الله الخبيث من الطيب ، ويجعل الخبيث بعضه على بعض ، فيركمه جميعاً ؛ فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون» ..

فكيف ؟

إن هذا المال الذى ينفق يؤلب الباطل ويملى له فى العدوان ؛ فيقابله الحق بالكفاح والجهاد ؛ وبالحركة للقضاء على قدرة الباطل على الحركة .. وفى هذا الاحتكاك المرير ، تنكشف الطباع ، ويتميز الحق من الباطل ، كما يتميز أهل الحق من أهل الباطل — حتى بين الصفوف التى تقف ابتداء تحت راية الحق قبل التجربة والابتلاء ! ويظهر الصامدون الصابرون الذين يستحقون نصر الله ، لأنهم أهل لحمل أماناته ، والقيام عليها ، وعدم التفريط فيها تحت ضغط الفتنة والمحنة .. عند ذلك يجمع الله الخبيث على الخبيث ، فيلقى به فى جهنم وتلك غاية الخسران ..

والتعبير القرآنى يجسم الخبيث حتى لكأنه جرم ذو حجم ،

وكأنما هو كومة من الأقذار ، يقذف بها فى النار ، دون إهتمام ولا اعتبار !

«فيركمه جميعاً فيجعله فى جهنم» ..

وهذا التجسيم يمنح المدلول وقعاً أعمق فى الحس .. وتلك طريقة القرآن الكريم فى التعبير والتأثير ..

## الفهـــرس

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| — الإهداء ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... | ٥ |
| — المقدمة ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... | |
| تمهيد . ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... | ٧ |
| ١ — حياته وعصره ... ... ... ... ... ... ... ... | ٩ |
| المرحلة الأولى : تلميذ العقاد ونبوءة الامام الشهيد .. | ٩ |
| المرحلة الثانية : سيد قطب صديق الحركة الاسلامية . | ١١ |
| المرحلة الثالثة : من الصداقة إلى التصديق. ... ... | ١٣ |
| المرحلة الرابعة : من التصديق إلى الاستشهاد .. ... | ١٦ |
| ٢ — منهجه في ظلال القرآن . ... ... ... ... ... ... | ١٨ |
| ٣ — منهجه في عرض الغزوات... ... ... ... ... ... | |
| أولا : روح الغزوات عند سيد قطب ... ... ... | ٢٠ |
| ثانياً : واقعية الغزوات ... ... ... ... ... ... | ٢٤ |
| ١ — حقيقة الأعداء ... ... ... ... ... ... ... | ٢٥ |
| ٢ — حقيقة الانتصار... ... ... ... ... ... ... | ٢٦ |
| — وأخيرا ... ... ... ... ... ... ... ... ... | ٢٧ |
| بين يدي الغزوات. ... ... ... ... ... ... ... | |
| ١ — مفهوم الجهاد في الاسلام ... ... ... ... ... | ٣١ |
| ٢ — لماذا كان الجهاد ؟ ... ... ... ... ... ... | ٣٦ |
| ٣ — ما قبل بدر... ... ... ... ... ... ... ... | |
| «سرية عبد الله بن جحش» ... ... ... ... ... ... | ٤٥ |

الموضوع | الصفحة



* * *

# الغزوات
## فى ظلال القرآن

صدر من الغزوات حتى الآن :

١ ـ غزوة بـدر .

٢ ـ غزوة أحد .

٣ ـ غزوات مع اليهود .

٤ ـ غزوة حنين والأحزاب .

٥ ـ غزوة الفتـــح .

٦ ـ غزوة تبـــوك .

رقم الإيداع ٨٣/٤٨٥٨

مطابع جريدة السفير ٤ شارع الصحافة ـ

ت : ٨٠٣٩٦٤ ـ الاسكندرية




سيد قطب

## هذه الغزوات

- لقد جاءت هذه الغزوات لتقرر فى أذهان المجاهدين إلى يوم الدين حقائق ضخمة عاشها الأوائل وتحركوا بها وهى حقائق نافعة لنا ونحن فى طريقنا إلى استئناف حياة إسلامية بعون الله .
- كما جاءت هذه الغزوات حية من وراء الأسباب والأحداث والأشخاص والحركات ... بتصور إسلامى شامل كامل ... يستقر فى النفس من وراء الأحداث والتعقيب عليها من الداعية الفذ صاحب الظلال الشهيد سيد قطب ...
- ويسر دار الدعوة أن تهدى هذه الحقائق للعالم الإسلامى ... بكمال التصور ... وجلال الفهم ... نفع الله بها وأثاب ... الجنة .

دار الد...




